محمود قاسم

أيام الشارلستون

رواية

الكتاب: أيام الشارلستون (رواية)

الكاتب: محمود قاسم

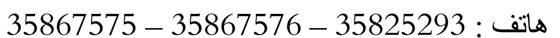
الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قاسم ، محمود

أيام الشارلستون / محمود قاسم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: 1 – 525 – 446– 977– 978

أ – العنوان رقم الإيداع : 15980/ 2016

أيام الشارلستون





اليوم الأول

وبينما يلقي محمد شهدي كلمته الحماسية عن خطبة الأمس التي ألقاها "الريس" في الاتحاد الاشتراكي لم أكن أتوقع أن يكون قريبًا مني إلى هذا الحد..

فجأة لمست يده كتفي. وكان هذا وحده سببًا لأن يصيبني بأعلى درجات الذعر. ليس فقط لأننب جرؤت أن أضحك في طابور الصباح. بل لأنني تحركت من مكاني. ورغم أنني أفعل ذلك كل صباح، لكنني لم أتوقع أن تلمس يداه كتفي الأيمن بمثل هذه السرعة.

قاومت رغبتي الشديدة في أن ألتفت إليه حتى لا أعرف من يكون حقيقة. فكلا الرجلين اللذين يمكنهما أن يلمسا كتفي في مدرسة العباسية يستطيع أى منهما أن يحول يومي إلى سعير لا يهدأ من النيران. في كسور من اللحظات التي ركبني فيها هذا الرعب الملتهب، لم أستطع أن أتخيَّل مصيري لو أن الرجل الذي اكتشف أنني أضحك في الطابور هو أحمد السلكاوي، أشهر ناظر في المدينة. والرجل المرعب لكل تلاميذ المدرسة. كما لم أستطع أن أتنبأ بما يمكن أن يحدث لي لو أن الذي اكتشف جرمي هو الأستاذ "فيصل". مدرس التربية الرياضية، الذي يشرف على طابور الصباح أيام السبت والإثنين والأربعاء بالتناوب مع الأستاذ نصيب الذي يتولى الإشراف على نفس الطابور أيام الأحد والثلاثاء والخميس.

صاح، وهو يقف أمامي كأنه "فرقع لوز" كما يحلو لنا أن نسميه فيما بيننا:

– الله.. الله.. في مدرستنا خنفس..

وكان هذا هو آخر ما توقعت أن يلاحظه في تسريحة شعري. دفعني بعضلاته القوية، وبصورة لم أتوقعها إلى خارج الصف، وقال بصوت خفيض، حتى لا يفسد على الآخرين متعة متابعة كلمة الصباح التي اعتاد "محمد شهدي" إلقاءها كل يوم، وقال بعبارات تخلو من الانفعال، لكنها تحمل كل الوعيد:

– نهارك كله خنفسة!!

ورغم أن الجملة نُطقت بما يثير الضحك في الصفوف المتراصة وراء بعضها من طلاب المرحلة الثالثة من المدرسة، فإن أحدًا لم يجرؤ حتى على الابتسام، ربما لأنه أكمل كلماته قائلًا بحسرة:

– أمثالك هم الذين أتوا لنا بالنكسة!!

كأن ذلك وحده سببًا لأن أتوقع أن ما سيصيبني اليوم على يديّ الأستاذ فيصل سيكون أشد عليّ من النكسة، والحزن العام الذي يسيطر على الناس منذ أكثر من ثمانية أشهر.

في تلك اللحظة كان شهدي قد أنهى كلمته، ووقف أمام الميكروفون بأعلى درجات السلم يلتقط أنفاسه الحماسية. فانطلق لهاثه عبر

المكبر. بينما دفعني الأستاذ فيصل إلى داخل الساحة الفارغة التي يمكن من خلالها لكل تلاميذ المدرسة أن يروا طالبًا في الصف الثالث، وقد مشَّط شعره بطريقة غريبة، فتهدلت خصلته بطول جبهته أسوة بما يفعل "رنجو ستار" أحد أعضاء فريق الخنافس الأربعة الذي يعرف الكثير من أسمائهم. يدفع هذا الطالب مدرس الألعاب الرياضية، كأنه يريد أن يريهم العينة التي عليها أن تُعاقب صباح اليوم.. توقعت منه أن يقوم بتجريسي، ويفضحني أمام الجميع. وأن يعلو صوته ليصب جام غضبه على أمثاله من المخنثين. لكنه لكزني، وصاح:

– هناك.. أمام الغرفة واحد..

وقبل أن أتحرك من مكاني حتى لا ينتبه إلى وجودي ناظر المدرسة. صاح الأستاذ فيصل مخاطبًا الهواء:

– دور الفصل..

وراح طلبة النشاط يقرعون الطبول.. كان على كل الصفوف أن تتحرك. كل إلى فصله؛ فعلى اليمين، يتوجه طلاب أولى أول في البداية، ليدخلوا الفصول التي تقع بالدور الأرضي، ثم على اليسار يتحرك طلاب ثالثة أول نحو الأدوار العلوية، ولأول مرة أحس أنني لا أعرف طريقي. راحت قدماي تتعثران وهما ثابتتان في مكانهما، فلاشك أن الغرفة واحد مليئة بالفئران والحشرات القارصة، وعليّ أن أقضى بها يومى عقابًا لى على "خنفستي" الوقحة. لكن، لا أعتقد أن مدرسة ثانوية مثل العباسية بها مثل

هذه الغرفة التي كانوا يخيفوننا بها في مدرسة الارتقاء الوطنية الابتدائية، دورة المياه بها مظلمة طيلة ساعات النهار. ممنوعين من الاقتراب منها. حتى لو اشتدت حاجتنا إلى أقصى مداها للدخول إليها.

دفعتني حاستي كمذنب أن أجد نفسي واقفًا أمامها. إنها غرفة الألعاب الرياضية التي يمكننا أن نجد فيها، في أي وقت، كلًا من الأستاذ فيصل، والأستاذ نصيب. ولأول مرة منذ دقائق تتملكني الشجاعة. ليس لأنني رأيت الأستاذ نصيب جالسًا على مكتبه يكتب في وريقات أمامه، ولكن لأن هناك مذنبين آخرين كانا واقفين على مقربة من باب الغرفة.

ابتسم أحدهما، وصاح:

– آه.. أنت الخنفس؟!

كان يضحك كأن الأمر لا يعنيه، نظرت إليه في دهشة، وحاولت أن أرى في شعره علامات تؤكد أنه يقلدني فيما فعلت. لكنني لم ألحظ في وجهه ما يثير الانتباه. أشار إلى زميله الذي يقف إلى جواره وقال:

– اكتملت اللعبة.. السيد بريسلي.. و..

ثم غيَّر من لهجته وقال:

- فرغلي.. اسمك فرغلي.. أليس كذلك.

وقبل أن أصحح معلوماته عن اسمي، أكمل بنفس السخرية:

– فرغلي خنفس..

أحسست أن أمورًا ما قد تغيرت.. من الرعب الشديد الذي أصابني، والأستاذ فيصل يضع يده على كتفي ثم يدفعني نحو الربع الخالي من الطابور، إلى ذلك الساحر الذي يهزأ بي أنا وزميلنا المذنب، رفعت رأسي إلى "السيد"، ولم ألحظ شيئاً غير عادي في وجهه، مثلما يبدو على تسريحة شعري. فإذا كان هذا الساحر يطلق اسم "السيد بريسلي" على زميلنا المذنب الثالث، باعتباره يقلد ألفيس بريسلى، فإنه، ولله الحمد، لا يحمل أية صفة من صفات المطرب الأمريكي الذي نتهافت على رؤيته في سينما بارك وبلازا، والهمبرا، أمام حسناوات الزمان، وفتيات العصر والأوان، يطوف بهن جزر هاواي، ومدينة لاس فيجاس، والبحرية الامريكية، وقد أمسك جيتاره، وتحلى بابتسامته، وهو يغمض عينيه ويغني لواحدة منهن، وقد مشط شعره بطريقة جذابة جعلنا نضع كثيرًا من صوره بين دفتي كراريسنا وكتبنا الدراسية، بل أن نرسل بطاقات منها إلى فتيات مدرسة محرم بك الثانوية.

قلت متسائلًا: بريسلي.. أتقصد ألفيس بريسلي؟

وكأنما تلك الكلمات، كانت مفتاح زنبرك، سرعان ما حركت "السيد" من مكانه. فراح يفرك سبابته وإبهامه في يده اليمنى على طريقة ألفيس في فيلم "حب في لاس فيجاس"، وبدأ يهز ساقه اليمنى، ورأسه على طريقة مطربنا المفضل، ومثلما يفعل كثير منا وهم يتزاحمون في طرقات السينما، حتى يعرض أحد أفلامه.

أحسست بالجزع، وأنا أحاول المقارنة بين نجمنا الوسيم الذي يملأ الأماكن التي ذهب إليها بالبهجة، والفرحة، والطرب، ويتمتع بوسامة ملحوظة وبين "سيد بريسلي" المزعوم هذا. فإن "سيد" يحاول أن يبدو أشبه بألفيس. تمنيت لو توسلت إليه ألا يفعل ذلك، وألا يمسخ صورة مطربنا الوسيم مهما كان يحبه.

فجأة، لمحت خياله، يتحرك نحونا. تجمدت مكاني. أعتقد أننا نحن الثلاثة وقفنا صفًا واحدًا. نرفع رؤوسنا إلى الهواء، وثبت كل منا يديه إلى جانبه، كجندي الحراسة، لكن بدون سلاح. راح كل منا يتوقع أن تبدأ مباراة السخرية المتوقعة، بأن يروح يستهزيء بنا، وأن تسمع آذاننا ما لا تريد أو تستحسن سماعه.

أعتقد أنه دخل غرفته دون أن ينظر إلينا، أو لعله لم ينتبه بعد إلى وجودنا. سمعناه يتحدث إلى الأستاذ نصيف. ثم تناثرت ضحكته من الغرفة إلى أذني، مما دفعني إلى التساؤل وأنا في حالة تصلب أصابني لوجوده: هل يمكن لمثل الأستاذ فيصل أن يضحك مثلما نفعل نحن؟

في تلك اللحظات، خلا فناء المدرسة الواسع تمامًا من الطلاب، وأصبح محظوراً لمدة ساعة إلا ربع أن يظهر شبح أي منهم خارج الفصول. بدا من الواضح أن المذنبين الثلاثة لهذا اليوم لن يدخلوا الفصول ولن يتلقوا دروس اليوم إلا بعد أن ينالوا ما يستحقون لما اقترفه كل منهم.

خرج من الغرفة، وسمعناه يقول كأنه يحدث زميله الأستاذ نصيف:

– سوف أحضر أولى سابع إلى الفناء..

عندما اختفى، ارتخت أجسادنا، وتنهدت صدورنا، وعلق زميلي الذي لم أعرف اسمه بعد هامسًا:

– اسمه.. فيصل حركات..

نظرت إليه في هلع، وودت لو سددت فمه، حتى لا يتضاعف عقابنا الذي لا نعرف مداه. لكنه لم يترك لي الفرصة، وراح يقول:

– هل لاحظت بنطاله.. يكاد يلامس صدره..؟

ثم ضحك. بينما رحت أنظر إليه، كأنني أحاول أن أتعرف عليه، أو أعرف جرمه. فطالما أنه يرى بنطال الأستاذ فيصل يكاد يلامس صدره، فإن زميلي يرتدي بنطاله بطريقة مختلفة، يدفع طرفه حتى أعلى منطقة بطنه، وقد لف حوله حزامًا عريضًا أبيض، به بعض الأزرار الحديدية، بدا بنطاله ضيقًا، مصنوعًا من تيل أزرق، وقد ثنى طرفه الأسفل، بينما بدا قميصه غريب الشكل بالمربعات الكبيرة متعددة الألوان، التي يغلب عليها اللون البني الغامق. تذكرت فجأة محمد زكي الذي كان أهم ما يميزه "البُف" الحاد الذي يندفع أمامه وهو يعبر حارة الفهد، أو يقف عند إحدى "القمم"، وهو يمسك بميدالية بين يديه، اصطلح الجميع على تسميته "محمد جيمس" لكثرة إعجابه بالممثل الأمريكي "جيمس دين" الذي لم ير أحدنا حتى الآن أي فيلم من أفلامه، لكن الكل يؤكد أنه صنع "الجمسنة" في العالم. هو بمثابة داعية شهير لارتداء الملابس بهذه الطريقة التي يرتدي بها زميلي ملابسه.. تلك

الطريقة التي أكد بها جميع شباب حارتنا أنها كانت السبب في أن يكون "محمد جيمس" هو صاحب أكبر رصيد من صيد البنات في حارتنا الطويلة.

نظرت إليه، وسألته مازحًا:

– محمد جيمس.. أليس كذلك؟

أجاب بكل ثقة، حتى يمنعني من السخرية به، كما يسخر هو من "سيد بريسلي"، وقال:

- لا.. اسمي نادر وهيب..

وقبل أن يكمل عبارته "الظاهر أنك لا تعرفني"، كنت قد جمعت في ذاكرتي كل ما سمعته عنه. فهو لا يحتاج أن نتعرف إليه لكثرة ما ذكر اسمه في خطبة الصباح، ولائحة العقوبات، وحكايات أخرى يتناقلها الطلاب. قيل إنه لم يكمل يوماً دراسيًا واحدًا طوال العام. وإنه موجود دائمًا في محطة الرمل. وإنه "روك هدسون" مدرسة العباسية الثانوية، وإن أحمد رمزي يمكنه أن يأخذ على يديه دروسًا في علم شقاوة التلاميذ، وأن حسن يوسف صفر على الشمال إلى جانبه.

انتابني إحساس بالفخر، فهأنذا في صف واحد من المذنبين الذين يضمون من بينهم نادر وهيب. وغدًا تذاع أسماؤنا نحن الثلاثة جنبًا إلى جنب. ولعل الشهرة تصيبني في كل أنحاء المدرسة عندما يعرف الجميع أن مستجدًا في عالم التقاليع انضم إلى فرقة المشاغبين. رغم أن أحدًا لا يعرف أنها المرة الأولى التي أمشط فيها شعري على طريقة الخنافس: قَصَّة من

الأمام، وشعر طويل إلى حد ما من الخلف، ولا أكثر. هكذا رأيتهم في إحدى صور صحيفة الأهرام أمس الأول. يمسكون بآلاهم الموسيقية، والمقال عنهم يؤكد أن شباب أوروبا راحوا يقلدوهم، ويطلقون شعورهم على طريقتهم. وأن هذه الموضة الجديدة التي يسير على هداها الشباب في كل الدنيا. أحسست أها راحت على "ألفيس بريسلي" و"كليف ريتشارد"، و"روك هدسون". رأيت شابًا في محطة الرمل يطلق شعره كما البنات فيلفت أنظار من حوله. يشيرون إليه إعجابًا. فقد كان شعره جميلًا، ملفتًا للعيون. هنا انتابتني الفكرة. فلماذا لا أحاول أن أجذب الأنظار نحوي مثلما فعل الشاب. لماذا لا أجعلهم يشيرون نحوي. ويقومون بتقليدي؟ إذن فلأبدأ بقص شعري على هذا المنوال. لم أتصور أن أمري سوف ينكشف بهذه السرعة. وأنني سأكون الخنفس الأول في مدرسة العباسية الذي يتم إخراجه من الطابور..

إنه الأستاذ فيصل، دقيق الملاحظة، الذي تمكن بلفتة واحدة وسط الصفوف أن يخرجنا نحن الثلاثة بأشكالنا الغريبة، الأول طرز نفسه على غرار "ألفيس بريسلي" دون أن يعرف أنه لا صلة قط لشكله بما نعرفه عن "ألفيس"، والثاني بدا أقرب إلى "جيمس دين"، تلاه "الجمسنة" رغم أنه أقرب في وسامته إلى "روك هدسون"، أو "أحمد رمزي". أما الثالث فقد قلد فريق الخنافس الغنائي. ويعلم الله وحده. هل هو أقرب في جاذبيته إليهم أو لا؟

راح يتكلم عن نفسه، باعتبارنا نعرفه جيدًا. فهو "أجمس" ولد في محرم بك. يرتدى كل يوم طاقمًا جديدًا، وأحيانًا طاقمين. طاقم في الصباح يأتي به إلى المدرسة. وآخر يرتديه بعد الظهيرة. وعرفت أنه مضرب الأمثال في الجمسنة، وأنه لا يوجد مدرس واحد في المدرسة لديه مثل هذه الأطقم المنافسة في ألوانها. أخذ يسخر من المدرسين الذين يأتون إلى عملهم في بزات، مهما كان الجو حارًا. ثم قال إن "جيمس دين" أول من لبس التيل في حياته العادية وهو نوع من الملابس المألوفة التي اصطلح على تسميتها بالجينز.

بدا ابن الهرمة، مبهرًا بكلامه، واثقًا بنفسه، لم يعبأ بصوته المسموع، إن الأستاذ نصيف يمكن أن يسمعه فيخرج لينهر أباه والذين أنجبوه... وخلفوا أجداده، لكن يبدو أن الأستاذ نصيف اعتاد على سماعه، أو لعله جعل أذنًا من طين والأخرى من عجين فانشغل بما يكتبه.

تكلم عن أناقته وملابسه، فنسينا الأستاذ فيصل الذي انشغل بحصة التربية الرياضية لفصل أولى سابع، لم نعد نبالي بما يمكن أن يحدث لنا على يد الناظر، ولا حتى على يديّ الأستاذ فيصل – أقوى المدرسين شخصية في كل مدارس المنطقة – وكيف لنا أن نبالي ونحن نسبح في هذا العالم المثير، دنيا تملأها شخصيات معروفة بأناقتها، ووسامتها، وبساطتها، وأصبحت في كل مكان رمزًا للجاذبية. الست "مارلين مونرو" والأخ "جيمس بوند" والبنت "كيم نوفاك".. وربما "لبنى عبد العزيز"، ويمكن الممثلة الجديدة "نجلاء فتحي".

عدّد الأسماء التي لا أكاد أعرفها. ممثلين، ورجال سياسة، ومطربين، وعارضات أزياء مثل "جين شرمبتون". لدرجة جعلتني أمد – ودون أن أدري – أصابعي إلى شعري وأحاول أن أعيده إلى شكله التقليدي. ليس محوًا لآثار أحاول إخفاءها عن الأستاذ "فيصل" إذا جاء وأراد عقابي، لكنني أحسست أن محيطات واسعة لا نهاية لها تفصلني عن هذه الأسماء وغيرها. فكيف لي أن أكون خنفسًا صغيرًا في عالم به مثل هذه الحيتان في عالم الأناقة والوسامة. ليس لأنني لا أمتلك وسامتهم. ولكن لأن أمي إذا اشترت لي قميصًا واحدًا في العام الدراسي، فإن هذا يعتبر إنجازًا كبيرًا. وجدت نفسي أتحسس البنطال الذي قامت بضبطه بإبرتها كي يناسب جسمي بعد أن منحنا خالي "بدري" لفة ملابس منذ أسبوعين، بدأنا نرتدي منها جميعًا.

للحق. فإن قلبي خفق بدرجة أقل حين رأيناه أمامنا للمرة الثالثة جاء يقفز بملابسه الرياضية. فوجدنا منتصبين في أماكننا، ملأني الشوق لأن أسمع بقية حكايات "نادر وهيب" المثيرة. لم تقل درجة خوفي من العقاب لأنني نجحت في إخفاء جريمتي بسهولة، ودفعت شعري جانبًا، فاختفت كافة علامات "الخنفسة" لكن لأن العالم الجذاب الذي يتحدث عنه "نادر وهيب" بدا هائلًا لدرجة يتضاءل عندها أي عقاب.

بدا شموخ أجسادنا أمامه، كأنه أقرب إلى التحدي منه إلى الخوف من عقابه، أو احترامًا لمهابته. تنبه إلينا هذه المرة. فلم يدخل إلى الغرفة واحد مباشرة مثلما فعل في المرة السابقة. راح ينظر إلينا، كأنه يثير الخوف

في قلوبنا أكثر. خلته وهو ينظر إليّ كأنه يتذكر نوع جرمي الذي ارتكبته بعد أن أزلته، ثم قال:

– هذه المرة. سأريكم ما لم ترونه في حياتكم.

نزلت عباراته كالزلزال في كياني. فلا شك أنه يأخذنا بجرائر بعضنا، بل لعله سيعاقبنا هذه المرة بأثر رجعي عن كل ما اقترفه "نادر وهيب" في المرات السابقة. نظر إليه، وقال له بتحد ملحوظ:

– وعامل لى جيمس يا سيد نادر.. طيب.. إن ما خليتك تمسح المدرسة مسح.

أشار إلى صناديق القمامة الثلاثة التي لم نلحظ وجودها إلى جوارها منذ أتينا إلى المكان، قال بكلمات سريعة قبل أن يدخل غرفته:

– أريد هذا الفناء نظيفًا خلال نصف ساعة.. مثل بيوتكم إذا كانت لكم بيوت.

لم يتركنا نراجعه فيما اتخذه من قرار؛ لأنه يعرف أن أحدًا لا يمكنه أن يفعل ذلك. فالفناء مليء بما خلفه الطلاب قبل الطابور. ومن الواضح أنه يريد إهانة كرامتنا نحن الثلاثة، فبينما فريق الخنافس يحقق ملايين الجنيهات بأسطواناتهم وأغانيهم، وفيلمهم الأخيرة، وبينما "ألفيس بريسلي" يصبح معبودًا للفتيات في كل الدنيا، وبينما "نادر وهيب" يؤكد أن ما لديه من ملابس يكفي مدرسة بأكملها، يغير منها ما يشاء ليل نهار، فإنه يريدنا أن نمسك الصناديق، ونلم الأوراق التي نثرتها الرياح، وألقاها الطلاب. من

أجل أن تتكسر مكواة بنطال "سيد بريسلي" وياقة "نادر" المنشاة، وربما شعري الذي أكد قبل قليل أنني سليل الخنافس..

ردد "نادر" في سخرية واضحة":

– فلير من ينفذ كلامه.

كان صوته عاليًا لدرجة أن الرد جاء بسرعة من داخل الغرفة:

– إنت يا حمار.. نفذ ما قاله لك..

ارتعشت القلوب؛ فهذه المرة لم يكن الأستاذ فيصل هو المتكلم، بل جاءنا صوت الأستاذ نصيب الأجش مليئًا بالحزم. ارتجفت أجسامنا، ونظرت إلى زميلي دون أن أنطق بكلمة واحدة، لكن أعيننا بدت كأنها تقول:

– إنه يسمعنا منذ الوهلة الأولى.

كان نادر وهيب أول من انحنى ليلتقط أحد الصناديق بيده اليمنى، بعد أن دس "أجندته" أسفل إبطه الأيسر، وتقدم نحو الفناء الكبير. في تلك اللحظات انطلق جرس المدرسة يعلن نهاية الحصة الأولى، وأصبح في حكم المؤكد أن كل طالب سيخرج من فصله أثناء الفسحة بين الحصتين يمكنه أن يرانا نحمل الصناديق ونشرع في لمّ بقايا الأوراق التي يمتليء بها الفناء.

هنا تمتم "وهيب": وحياة أمه. لن ألمّ ورقة واحدة..

عقب "السيد" وراءه: ولا أنا.. وليفعل ما يفعله.

ووجدت نفسي في امتحان صعب. فهل أخرج عن طوع الأستاذ فيصل أم أخرج عن قانون وجدت نفسي مقيدًا به، يصنعه كل من "نادر" و"سيد بريسلي". فأقوم بجمع البقايا وحدي؛ فالفناء ليس مقسمًا إلى ثلاثة أقسام تم توزيعها علينا بالتساوي.

أمام المفاجأة الجديدة التي وجدنا أنفسنا فيها، أسرع "نادر" بالتصرف بذكاء. وقلب الصندوق إلى جوار السور وجلس فوقه، بينما وجدت صندوقي يتدلى بين أصابعي، وأصبح عليّ أن أفعل مثله أو أن أجر الصندوق وراءي وأملأه عن آخره.

يا لها من لحظات عصيبة. ألتفت خلفي إلى ممرات الفصول، وخلت أن كل المدرسة قد خرجت من أجل متابعة آخر التطورات فيما سنفعله بينما ردد "نادر وهيب":

– إنهم لا يعرفون "نادر وهيب".. سلطان البلياردو.

لم أفهم ماذا يقصد بالضبط.. بينما راح "سيد بريسلي" يردد بصوته الأجش:

– لاف مى.. لاف مى.. كويك.

وكرر ما يغنيه أكثر من مرة. هنا بدأت أتأكد من أنه ينطق أغنية "ألفيس" بنفس الطريقة مع فارق جمال الصوت. حاولت أن أجد شيئًا أثبت

به مواهبي. لم يكن أمامي سوى أن أشدو بإحدى أغنيات فريق الخنافس، لكنني تنبهت فجأة أنني لا أكاد أحفظ أية أغنية من أغانيهم. وأن كل علاقتي بهم تتمثل في تلك الصور التي خلبت لبي عندما شاهدتها في مجلة "الكواكب".

قرع الجرس مرة ثانية معلنًا بدء الحصة الثانية، وبدأ الطلاب يتسربون إلى فصولهم مرة أخرى، ومن الفناء أمكنني رؤية بعض المدرسين يدخلون الفصول، أو يهرعون إلى هناك. ففي مدرسة العباسية، لا يمكن لأحد أن يتأخر عن أداء عمله. بدأت أحس أن عليّ الانتهاء من مهمتي، حتى يمكنني اللحاق بالحصة الثالثة بأي ثمن.

يبدو أن "نادر وهيب" فكر بنفس الطريقة، لذا فما إن خلا المجال حولنا، حتى قام من فوق صندوقه، وحمله، ثم راح يتحرك في الفناء. تبعه "سيد بريسلي"، ووجدت قدميَّ تدفعاني إلى الطرف الآخر، كي ألتقط ما يمكنني من الأوراق.

تناثرنا في الفناء الكبير.. لم تمر سوى دقائق قليلة، إلا وملأت صندوقي عن آخره. وقبل أن ألتفت إلى الغرفة واحد، سمعت صوتًا يناديني من أطراف الفناء. ما إن التفت إليه، حتى وجدت صاحبه يقفز من أعلى السور بمهارة ويطلب مني قبل أن يختفي أن أبتعد.

لم أفكر فيما يجب أن أفعله، فقد بدت روحي في أطراف حلقي مع آخر وريقة قمت بلمها، كان "نادر وهيب" قد رمى بصندوقه بينما اختفى

صندوق "سيد بريسلي"، وراح صندوقي يتطوح في الهواء بعد أن رفعته بقدمي اليمنى بكل ما أملكه من قوة، وأنا أتمنى أن يدخل من باب الغرفة واحد قبل أن أرمي بحقيبتي خارج إطار السور، واستجمع كل قوتي كي ألحق بها قبل أن يكتشف أحد ما أفعله.

تم كل شيء بأسرع مما تصورت، ولا أعرف حتى الآن كيف وجدت نفسي خارج المدرسة، أتسلق السور العالي، وأرتمي وراءه ليلتقطني "نادر" و"سيد". لأكون مدينًا لهما بعدم تحطيم جزء – لا أعرف ما هو – من جسدي النحيف.

تحركت الأشياء بسرعة، اندفع "نادر" أمامنا ليدلف من الحارة المقابلة، نحو شارع محرم بك، وليقذف قبلنا إلى ترام رقم **4** الجديد كي نرمي بأنفسنا معه عند أعتاب محطة مصر. ونمشي في شارع المحطة، نحو كوم الدكة ثم سينما أمير، وشارع صفية زغلول. لم نكن قد تبادلنا جملة واحدة خلال تلك الفترة. تقدمنا "نادر" كأنه يقود فرقتنا الصغيرة. وهو يعرف طريقه جيدًا. أما "سيد" فقد بدا أشد مراسًا مني، لم يكف عن دندنة أغنيات تخيلت أنني أعرفها لألفيس بريسلي. بدا كأنه أطلق كل ما يمكن أن يحدث في المدرسة وراءه. وإنه لا يشغله شيء سوى الدندنة.

حاولت أن أجد شيئًا أتغنى به؛ فأدركت مجددًا أنني لا أكاد أعرف هؤلاء الأربعة الذين عوقبت وهربت من المدرسة لأنني حاولت تقليدهم. وأنني أحفظ أغنيات "عبد الحليم"، و"فريد"، و"نجاة"، و"أم كلثوم"، وبعض

أغنيات "شادية"، و"صباح"، و"محمد قنديل"، لكنني لا أحفظ أبدًا آية أغنية ما شدا بها "ألفيس بريسلي"، في أي من أفلامه.

قلت وأنا أشير إلى أفيش فيلم إيطالي على جدران سينما مترو:

– جينا لولو.. العرائس..

كنت أحاول أن أجذب انتباه "نادر" إلى أهمية الفيلم، لكنه بدا كأن الأمر لا يعنيه بالمرة، وأنه إذا كان علينا أن نتقبل قيادته. فلنمشي وراءه دون مراجعة. دفعنا أقدامنا إلى جوار سينما ريالتو التي علقت إعلانات فيلم "عودة العظماء السبعة"، لكن من الواضح أن الفيلم لن يلفت أنظار "نادر"، ولا "سيد بريسلي"، ورحت أتكهن بما يمكن أن نفعله فسألت:

– هل سندخل سينما الهمبرا؟

لم يرد، عرفت أن هذا يعني النفي، أشرت إلى قهوة السلطان حسين التي تمتلىء بالطلاب المزوغين من فصولهم:

– الا نلعب كوتشينة؟

كانت الإجابة نفسها.. ولاتزال أقدامنا تدفعنا وراءه.. يتقدمنا ببضع خطوات، وهو يضع يده اليمنى في جيبه، ويطلق صفيرًا مميزًا، كأنه مارش عسكري أجنبي، وددت أن أسال رفيقي "هل كان جيمس دين يفعل

مثله؟". لم أشأ حتى لا أكشف جهلي المطبق. وأنني لا أستحق كل الشرف الذي أحظى به الآن..

ما إن عبرنا تقاطع السلطان حسين، وسرنا بضع خطوات داخل النصف الثاني من شارع صفية زغلول، حتى رأيته يدخل من باب ضيق لكازينو لم أتخيل قط أنني سأدخله يومًا. أدركت أنه اختار هذا المقهى المتطور باعتبار أنه يليق بكل الحكايات التي رواها لنا في الصباح.

لم يجلس على تلك المقاعد الخالية قريبًا من الرواد الشباب. إلا من بعض الرجال الذين طالت الشيبة أغلب شعر رؤوسهم، وجاءوا ليحتسوا الشاي باللبن، في هدوء. سار عبر الممشى الطويل ثم انحرف يمينًا.. هنا رأيت منظرًا عجيبًا لم أتخيل أن أراه.

هتف واحد من الواقفين الذين يمسكون بعصا طويلة بين أصابعهم:

– هاللو.. نادر..

صاح كأنه وجد رفاقه الحقيقيين: نهاركم بلياردو.. يا تُحف.

بدت الإضاءة أضعف من أن تستوعبها العين. بينما راح يسأل:

– هل هناك "مائدة" خالية يا غجر؟

لم أستطع في البداية أن أميِّز أن هناك أكثر من عشرة موائد في تلك الساحة الجانبية من المكان، وأن هناك نوعين من الموائد التي توزع حولها اللاعبون ومشجعوهم. لكن أكثر ما لفت انتباهي هو تعدد الكرات الملونة

وكثرة عددها في بعض الموائد، بينما لم تزد عن ثلاث كرات في موائد أخرى.

سرعان ما انشغل "نادر وهيب" عنا، بينما راحت عيناي تستوعبان ما يجري في المكان. حصل "سيد بريسلي" على عصا ومائدة بعيدة عن مائدة "نادر" الذي بدا كأنه المايسترو "علي إسماعيل"، حين يقف أمام الفرقة الغنائية يقود أوركسترا لأغنية يشدو بها "عبد الحليم"، يمسك مربعًا صغيرًا من الطباشير بين وقت وآخر، فيروح يدهن بها طرف عصاه، وبكل دقة يضرب كرة صغيرة، كي تندفع عبر المائدة، لتصيب كرة أخرى لا تلبث أن تتحرك كي تصطدم بالكرة الثالثة، وهنا يتقدم نحو سبورة صغيرة على الحائط، فيدوِّن شيئًا يؤكد أنه قد حقق كسبًا ما.

بدا كأنه نسيني تمامًا. وانشغل بهذه المباراة التي لم تنعكس حرارتها على وجوه أصحابها، بعد ساعة واحدة رحت أحس بالتآلف مع المكان، وأسمع نفس العبارات، وألفاظ الاستحسان الباردة الخالية من الحماس لدرجة تجعل المرء لا يصدق أن هناك رابحًا وخاسرًا. فصارت أصوات خبطات عصا البلياردو بالكرات أشبه بلحن يمكن لأي غريب أن يألفه.

بدوت أشبه بنبت غريب في ذلك المكان. الجميع يتبادل الموائد، والعصي، ونفس اللغة عداي. لم تنتبني الرغبة أن أصبح واحدًا منهم، فهذا سوف يكلفني ما لا أستطيع أن أدفعه.. رحت أتخيل نفسي أشاهد فيلمًا حيًا أقرب إلى "إحنا التلامذة" فيه يبدو "نادر وهيب" وقد تقمص شخصيتي

"يوسف فخر الدين" و"عمر الشريف" معًا، أما أنا فلا أعدو أن أكون ذلك الساذج الذي عليه أن يصدم فيما يراه..

يُصدم، وأية صدمة يمكن أن يصدمها من هم أمثالي. خاصة أن عينيّ لا تكذبان وسط هذا الضوء الخافت.. إنه هو.. بشحمه ولحمه.. الأستاذ "فيصل".. إنه يدخل الصالة، لقد جاء بالتأكيد للبحث عن الهاربين الثلاثة، وضبطهم هنا متلبسين..!

اليوم الثانى

مدرسة العباسية بأكملها لا يمكن أن تنسى ذلك اليوم الذي عاد فيه الأستاذ "فيصل" من محطة الرمل، دافعًا أمامه ثلاثة تلاميذ، عثر عليهم في صالة البلياردو. وأصرَّ أن يقوموا – أمام كل طلاب المدرسة بعد الفسحة الثانية، وقبل الانصراف إلى الحصة السادسة، قبل الأخيرة – بلمّ ما خلَّفه الجميع في الفناء والطرقات في صناديق القمامة الثلاثة.

لم ينطق الأستاذ فيصل بكلمة واحدة، ولا هؤلاء التلاميذ بالطبع، ولم تمس يده صدغ أي منهم. لكنه نطق بعبارة واحدة شهيرة في طريق العودة:

– لست من المدرسين الذين يستدعون أولياء الأمور. طالما أنني وليّ الأمر..

اليوم، وبعد ثمانية أشهر، يجلس الأستاذ فيصل إلى جوار باب حانوت الحاج هاشم صاحب أشهر عمارة بنيت أخيرًا في شارع النيل، وقد امتلأ بالحماس، وهو يدفع "قواشيط الطاولة"، كي ينهي الدور الساخن الذي استغرقه طوال ربع الساعة التي وقفت أنتظر فيه الأتوبيس القادم من كوم الشقافة كي يقلني إلى الأزاريطة.

لا أعرف هل تأخر الأتوبيس عن موعده، أم أنني تعمَّدتُ عدم الركوب، كي أقف على رصيف المحطة، أنظر إلى الجهة الأخرى من الشارع إلى الأستاذ فيصل أراهن نفسي أنه سوف يكسب الدور من منافسه المحترف "الحاج هاشم" فلا يعني أن الأستاذ فيصل سوف يكسب الدور أن مكانته تعلو أكثر لدينا، بل يكفي أن نراه جالسًا إلى جوار "الحاج" أمام محله. يعني أن مدرس الألعاب الرياضية، يصادق أغنياء القوم، وهذا وحده كفيل بأن يقف كل التلاميذ احترامًا وتقديرًا.

بكل ما لديه من قوة، ضرب "القشاط" فوق الطاولة، كأنه يحسم معركة انتهت لصالحه. ثم قام من مكانه بحركة رياضية بالغة الرشاقة. كأنه يتنهد، وفي لحظة عابرة التقت عينانا، حاولت أن أشيح بوجهي عنه، حتى أتفادى تحيته، لكنه توقف عندى بعينيه، وبدا كأنه نسي انتصاره الساحق، وأشار إليّ بيده..

خفق قلبي، وجف لعابي، التفتُّ خلفي، وأنا أعرف أنه يقصدني، فهو لا يخطيء أحدًا عند الإشارة إليه، بدوت كمذنب العام الماضي وتخيلت أنه سوف يدفع بصندوق القمامة لألم مزيدًا منها تحت الأرصفة، خاصة أنني أمشط شعري اليوم بنفس الطريقة: "الخنفسة"..

وجدت قدميَّ تقفزان تقاطع الشارع، كي أجري نحوه، كما اعتدنا أن نفعل، هالني أن الصفارة هذه المرة ليست معلقة في صدره، ربت على كتفي، وسألني:

– إلى أين.. بهذه الأناقة؟

طالت قامتي، وانتفخ صدري وتلعثمت فخرًا بما أقول:

– في الكلية.. حفل تعارف..

يعرف أن المجموع الذي حصلت عليه مكنني من الالتحاق بكلية الآداب، وأن "نادر وهيب" التحق بالمعهد العالي للتربية الرياضية بأبي قير، نفس المعهد الذي تخرج فيه، وأن "سيد بريسلي" التحق بأحد المعاهد المسائية لتحسين مجموعه في العام الدراسي الجديد.

أردت أن أخبره أن طرقات الكلية، ومدرجاتها المخصصة للصف الأول، بالأقسام المختلفة، امتلأت بإعلانات عن الحفل الذي ستقيمه اللجنة الاجتماعية بمناسبة بدء العام الدراسي، بهدف التعرف إلى طلاب السنة الأولى.. ووددت أن أقول له إن البعض فسر سبب إقامة هذا الحفل بأنه دعاية للانتخابات التي ستقام في الأسبوع الثاني من ديسمبر. لذا حرصت أن أكون على "سنجة عشرة". أعيد تلميع الحذاء الذي اشترته لي أمي بمناسبة بدء العام الدراسي، أرتدي السترة المقلمة، وبنطالي الأزرق، وأطلق شعري على طريقة "رنجو ستار" دون أن أخشى اعتراض أحد في الكلية.

سأل بمودة بالغة:

– لماذا لم تركب الأتوبيس الذي مر منذ قليل؟

أدركت أنه منتبه إلى وجودي، وأن انشغاله بالطاولة لم يمنعه من الإحساس بنظراتي إليه. مد يده إلى شعري، وراح يربت عليه، وقال بصوت خفيض كدت ألا أسمعه:

– اسمع.. هل معك نقود؟

فهمت مقصده، فقلت بكل فخر: طبعًا.. معي اشتراك الأتوبيس..

تعمد أن يسير بجانبي، وأن نمر معًا أمام مقهى "اللبان" ولم أحس به يمده في جيبه، كأنه كان قد جهز نفسه لأن يدفع في جيبي بشيء قائلًا:

– اقض وقتًا جميلًا..

مددت يدي إلى جيبي، حاولت إخراج العملة الورقية التي وضعها هناك. لكن ضغطة أصابعه على كتفي كانت كفيلة أن تجعلني أحس أن ما يفعله ليس مثلما فهمت، بل هو أمر عليّ تنفيذه. تمتمت:

– لكن..

حسم الأمر وهو يسأل:

– هل ستتأخر..؟

أجبت: لا أعرف.. ربما الساعة العاشرة.

كنت أعرف أنه لابد من العودة قبل العاشرة، فاشتراكات الطلبة لا يسري العمل بها بعد ذلك الموعد. أردت أن أخرج له الوريقة التي دسها

في جيبي، لكنه أشار إلى الأتوبيس القادم من ناحية شركة الغزل، ودفعني قائلًا:

– هيا.. أتوبيسك قادم..

وقبل أن أنطلق لألحق بالأتوبيس سمعته يكمل: يا خنفس أفندي.

في الأتوبيس، تدفقت، كشريط السينما صور كل المدرسين الذين قاموا بالتدريس لنا طوال سنواتنا في مدرسة العباسية. رحت أقارنهم ببعض الدكاترة والمعيدين الذين يدرسون لنا الآن في الكلية. فحتى الآن لا أعرف لماذا هذه الهالة التي تحوِّط الدكاترة. رغم أن المدرسين كانوا أقرب لنا. هل هي الأناقة، وإصرار كل دكتور أن يدخل المحاضرة بالبدلة؟. لدرجة أن أحدهم يتباهى أمامنا بالحقيبة السوداء التي يصر أن اسمها "سمسونايت" ويفتحها متعمدًا أمامنا حتى نكتشف أن بداخلها أوراقًا، ونظارته الطبية. لو أن الأمر ينحصر في الأناقة، فلا أحد يمكنه أن يضاهي الأستاذ "عبد العزيز" مدرس التاريخ في الصف الأول الذي سمعت من خلاله لأول مرة أسماء "ليوناردو دافنشي"، و"رفايللو"، وكان يتغنى بما فعله "مايكل أنجلو". استطاع أن يجعلنا نعشق مادته ونحن ننظر إليه بافتتان. بدلته الأنيقة التي يرتدي دائمًا غيرها في الدرس التالي، وطريقته في الشرح، وثقافته الواسعة. لا أعرف لماذا افتتنت به؟ هل لأسلوبه في الشرح، أم لأناقته الزائدة عن الحد لدرجة أن كل التلاميذ اعتادوا التصفيق له في كل حصة يدخل إليهم بلا سبب، إلا لأن البدلة الجديدة أكثر أناقة من سابقتها. ولعله لهذا خصص يومًا للحديث عن الأناقة:

-       لو قرأتم تاريخ البشر، فستلاحظون أنه تاريخ ملابس يرتديها الناس. فلكل الشعوب ملابسها الأنيقة والخاصة بها. وقد اكتسبت الشعوب سماتها مما تلبسه. وتقول الأمثال: "عدي على عدوك معرش، ولا تعدي مكرش"، ثم ضحك وراح يشرح رأيه في هذا الأمر، سمعنا يومًا ما قاله باهتمام شديد، تمنيت لو رزقني الله مثلما رزقه لألبس أحلى الملابس، فما ذنب الناس أن أبدو أمامهم رث الهيئة، لكن اليوم، تغيرت أشياء كثيرة في العالم، فهناك في أمريكا الآن من يطلقون على أنفسهم "هيبز"، إنهم "أوسخ البشر" في ملابسهم، لكنهم ينادون بالسلام العالمي والأمن الداخلي.. وكم وددت أن أسمع رأى الأستاذ "عبد العزيز" في ذلك.

كان الأتوبيس أسرع من أفكاري. فوجئت به يقف أمام المجمع في محطة الأزاريطة، رحت أنظر إلى نفسي في الزجاج العاكس للمجمع. طبعًا شتان بين هذه السترة القديمة، وبين ما كان يلبسه الأستاذ "عبد العزيز". لكن هذا لا يمنع أن أكون طبيًا مثل هؤلاء "الهيبز" الذين لا يضعون للأناقة والملابس أي اعتبار.

اكتشفت أنني جئت قبل موعد الحفل بوقت طويل، بوغِتُّ أن المكان ليس مزدحمًا مثلما تصورت. رأيت مسرح الكلية مغلق الأبواب، رجعت مرة أخرى إلى الحديقة، لعلي أعثر على شخص أعرفه. رغم صعوبة الأمر. فالطلاب هنا يلتقون بين المحاضرات، أما في المدرسة فقد كانت السبع حصص تجمعنا كل يوم.

جلست تحت الشجرة أنتظر، أرقب القادمين فرادى أو جماعات تحت أضواء المصابيح التي بدأت تعمل عندما اختفت الشمس. تمنيت لو أن الأستاذ "عبد العزيز" موجود هنا، ليكتشف أن أناقته تختلف تمامًا عن الألوان المتعددة التي تسود المكان. ليس فقط في الفساتين القصيرة التي تشد العيون بما تحتويه من أجسام فاتنة، وبما تضمه من ألوان زاهية. كما تمنيت لو يجيء الأستاذ فيصل ليشاهد بنات الكلية حتى يراجع نفسه فيما فعله ذات يوم، حين اكتشف أن ثلاثة طلاب يقصون شعورهم على طريقة الخنافس و"ألفيس بريسلي" و"جيمس دين". فهنا يمكنك أن تجد جونلة أقصر طولًا مما ارتدته سعاد حسني في فيلم "شباب مجنون" وشابًا فتح أزرار قميصه ليكشف عن شعر صدره الأكثر كثافة من "أحمد رمزي". ووجه أكثر جمالًا من "زبيدة ثروت"، وشبانًا أجمل من "عبد الحليم حافظ" و"عمر الشريف"، وعمالقة يرتفعون بقامتهم عن "رشدي أباظة"، و"جون واين".

وقفوا في الطرقات جماعات، تنطلق من أعماقهم ضحكات رنانة مجلجلة، تهز القلوب، وترتج الآذان، وجدت لذتي في متابعتهم يتحركون كي تجيء مجموعات غيرهم، لم أتساءل إلى أي عام دراسي ينتمون، فمن الواضح أنه حفل للكلية جميعها، سمعت أحدهم يطلب من زميله أن يسرع إلى المسرح لحجز مكان قبل الزحام، بينما لم يبال الآخرون، كأنهم أتوا للوقوف في الطرقات، فالبنات بصفة خاصة، يقمن بتقليد "رجاء الجداوي" التي شاهدت صورها في جريدة الأخبار في الأسبوع الماضي، وحول الصور ريبورتاج لم يجذبني عن الميني جيب (الجونلة القصيرة) وهل هى موضة تناسب بلادنا، في مثل هذه الظروف؟

سمعته يناديني بصوته الجهوري المألوف الذي عرفته لتوي رغم أنني لم أقف معه سوى مرة واحدة. فليس هناك في كلية الآداب من له مثل هذا الصوت الجهوري، الذي يمكن سماع نبراته الهامسة لو وقفت على مسافة أمتار سوى "مجاهد الوكيل".

وجدت قدميّ تنطلقان إليه. ولماذا لا أنطق ما إن أسمعه يناديني، وقد أكسبني بنفسي ثقة لا حدود لها، قابلته في المرة السابقة، قدمني إلى "ريم" كأنني أهم شخصية في الوافدين الجدد إلى كلية الآداب.

ارتفعت يده الغليظة إلى أعلى، كي تلتقط يدي التي ارتمت في مساحتها الواسعة، حاولت أن أرتفع بقامتي كي أصل إلى وجهه المميز، سمعته يقول بطريقته الودودة:

– ماذا يا رجل.. أين أنت؟

قبل أن أرد على سؤاله، فعل مثل المرة السابقة، حيث راح يتحدث عني إلى زملائه الذين يحوطونه:

– إليكم فنان كلية الآداب الجديد.. شاعر موهوب..

وقبل أن يسمع كلانا تعليقات المحيطين به أخفض صوته الجهوري، كأنه يكلمني وحدي:

– هل تعرف، يا ولد، كنت أكتب الشعر مثلك؟

هززت رأسي في بله، ولففتها حولي. وأنا أوقن تمامًا أن هؤلاء الحسان لابد أن يجعلن من أي شخص شاعرًا لا يشق له غبار، وهل رأى أحد من الشعراء الكبار مثل هذا الجمال مجتمعًا من قبل. إنها كلية الآداب بما لها من شهرة دفعتني أن أكتبها كرغبة أولى في استمارات الرغبات. بدوت كأنني أبحث عن "ريم" التي وقعت أن تكون حيث يقف "مجاهد" الذي لكزني في كتفي وسألني كأنه صاحب البيت:

- هل أنت سعيد هنا؟

هززت رأسي دون نطق كلمة واحدة. هل في إمكان أحد أن ينطق وهو يشاهد كل الجونلات القصيرة الزاحفة في الممر، أعلنت "ريم" استياءها الشديد في المرة السابقة، حين تعرَّفت عليها من خلال "مجاهد". لم تكف خلالها عن الضحك، بإطلاق النكات أو سماعها. بدت جميلة بسيطة في أناقتها، وجاذبية عينيها الأقرب إلى عسل النحل في لونيهما، وإلى بشرتها البيضاء، وشعرها الأصفر، وقامتها المفرودة بشكل فريد. قالت يومها كلامًا كثيرًا لا أذكر منه سوى كلمة رددتها تدل على ثقة شديدة مصاحبة هذا الجمال الذي وقف أمامنا ينتفض ثقة بالذات، وأنها تسخر من كل الفتيات اللاتي يرتدين الجونلات القصيرة "عاطل على باطل" وأعلنت ساخرة:

"مسكين الميني جيب. لقد أهين بين صاحبات السيقان العجفاء".

نطقت كلمة "جيب" بلكنة غريبة، التوى لسانها بسرعة وهي تلفظ حرف الجيم في الكلمة بما يدل على أنها تدربت عليها بشكل جيد لا

تستطيع واحدة أن تفعل مثلها. ما دفعني طيلة أيام أن أستقي أية معلومات عنها: من تكون، من أبوها، هل هي مصرية، وما حدود علاقتها بـــ "مجاهد"؟ كل ما عرفت عنها أنها في الصف الثالث بقسم اللغة الفرنسية. وأنها قررت البقاء في الكلية لأطول وقت ممكن منذ أن التحقت بها قبل خمس سنوات. وهل هناك امتياز لمثلها – كما قالت – أكثر من البقاء في الكلية لعدة سنوات أخرى؟

توقعت أن أراها اليوم في شلة "مجاهد"، ولما لم تظهر في الدائرة الصغيرة التي تشكلها المجموعة، قررت أن أسأله عنها. قلت:

– هل بدأ الحفل؟

رد "مجاهد" بلا مبالاة، اختلفت تمامًا عن الطريقة التي حيَّاني بها قبل قليل:

– نعم طبعًا.. إذا أردت فادخل..

أحسست أنه يود التخلص مني.. وأننا نحن تلاميذ سنة أولى لسنا سوى دميات صغيرة يثبت بها لزملائه اتساع دائرة معارفه، انسحبت من المكان دون أن أستأذن، وحتى لو فعلت، فإن أحدًا لم يكن يحس بي. فباعدت خطاي عن المكان، كأنني أبحث عن شيء، توجهت ناحية مسرح الكلية دون أن أعثر على صحبة تناسبني، ترحَّمت على الأشهر الأخيرة التي تعرفت فيها إلى "نادر وهيب" ففتح لي آفاقًا لم أكن أعرفها، مما جعلني أفتقده في هذا المكان، والذي علَّق عليه قائلًا في آخر لقاء لنا منذ شهر:

– يا لحظك.. كلية الآداب.. مليئة بالآداب..

ضحك ضحكة لا أنساها، إنه الآن في معهد التربية الرياضية للبنين. ولا شك أنه يتمنى أن يكون في مكاني. فجأة، وأنا أدخل من الباب دفعني شخص، بدا كأنه يود أن يلحق بموعد مهم، التفتت خلفها، وهى تعتذر. ثم صاحت دون أن تفعل:

– أين أنت؟.. اظهر وبان.

وجدت لساني يبتسم. أردت أن أقول شيئًا. لكنها صعدت سلمًا صغيرًا إلى جوار الستار واختفت، بينما وقف طالب يتكلم في مكبر الصوت، كأنه يستهل الحفل:

– بسم كل شهيد نفتتح حفلنا السنوي..

دوَّى تصفيق حاد في أرجاء القاعة المزدحمة بالواقفين والجالسين، سكت وكأنه يترك فرصة للجميع أن يعبر عن شعوره الوطني ثم أكمل كلامه:

– للعام الثاني على التوالي، تقيم كليتنا حفلها وبلادنا في ظروف تستدعي من الكل الوقوف إلى جانبها، نحن نشعر جميعًا كأنما الجسد اقتطع منه شيء بعد أن تمكنت يد الغدر من احتلال سيناء.

ساد وجوم شديد في المكان، وراح يكمل خطبته الحماسية، وبدا كم هو متمكن في نطق الكلمات:

– ولذا، وقبل أن نبدأ الحفل، أعلن لكم الليلة عن تكوين جماعة أصدقاء المقاتل. ويمكن لمن يرغب، وكلكم بالطبع ترغبون، أن يسجل اسمه صباح يوم السبت لدى الزميل "محمد سرحان"، أمين اللجنة الاجتماعية.

دوّى تصفيق آخر حاد، وانطلقت من السماعات الملتصقة بالحوائط موسيقى السلام الوطني فوقف الجميل في أماكنهم، اعتدلت وأنا إلى جوار الحائط. ارتجفت أوردتي. ثم جاء صوت "الريس" وسط الموسيقى: "لا يعلو صوت فوق صوت المعركة" فدوَّت القاعة بالتصفيق من جديد.

بعد قليل وقف الشخص نفسه أمام الميكروفون، وبنفس الثقة راح يتكلم:

– الآن.. نبدأ الحفل. وحفل الليلة ليس كمثله حفل. فيه الرقص والتمثيل والاستعراض والغناء.

بدا شخصا غريبًا عن سابقه. كأنه انسلخ منه إلى إنسان آخر. سرعان ما اختفى عن الخشبة ليترك مكانه لمجموعة الراقصين والراقصات الذين ملأوا المكان فجأة بألوانهم الغريبة. بعضهم يحمل أعلامًا لمصر وللإسكندرية بفنارالها، ولكلية الآداب، والبعض الآخر يتحرك برشاقة ومهارة كأنه درب أن يفعل ذلك طوال الأجازة الصيفية. بدت ملابسهم متناسقة طلابًا وطالبات. استطاعوا أن يجذبوا إليهم الأنظار بشكل مبهر لمهارتهم في الحركة. وددت أن ألتفت إلى أي من الواقفين جانبي أسأله إن

كان أحد من الراقصين عضوًا في فرقة رضا، لكنني لم أجرؤ حتى لا أضيع على نفسي متعة الفرجة.

فجأة توقفوا واختفوا عن المكان، كما ظهروا.. لم يتركوا الفرصة للتصفيق الحار كما يليق بهم، لكنهم سرعان ما خرجوا مرة أخرى. خلتهم يرقصون ثانية، لكنهم راحوا ينحنون أمامنا كأنهم يحيوننا.

لم تكف يدي عن التصفيق، بينما حاولت عيناي أن تبحثا من جديد عن شخص أعرفه. لكنني لم أجده ومع ذلك لم أتوقف عن التصفيق.

ما إن عادوا إلى الكواليس، حتى ظهر الشخص الذي يقدم الفقرات، لم أعرف اسمه حتى الآن. كي يقدم الفقرة التالية، فوقف أمام الميكروفون بكل ثقة، وراح يتكلم كأنه يمثل:

- الموضة.. آه من الموضة.. ويا عيني على الموضة. مرة حذاء ذو كعب كريب، ومرة طربوش، ومرة طويل.. ومرة قصير.. ومرة جيمس دين، ومرة خنافس.. لكن كله كوم.. إلا.. إلا... الــ.... الميني جيب.

ضجَّت القاعة بالضحك لطريقته في الكلام، وهو يرفع بنطاله الواسع فيكشف عن ساقين عجفاوين، مكملًا طريقته في التمثيل. وهو يكمل.

– الآن.. مع اسكتش الميني جيب.

اختفى في الظلام وسط ضحكات صاخبة وتصفيق، شاركت فيها بالطبع، ما دفعني أن ألتفت إلى الطالب الذي يقف خلفي وسألته وأنا مازلت أضحك:

– ما اسم هذا الطالب؟

لم يكن يصفق، بل استند إلى الحائط في القاعة المزدحمة. قال بنعرة جامدة:

– "سمير ملفوظ"..

بدا الاسم غريبًا، أحسست كأنه يسخر منه، فسألته ثانية:

– تقصد محفوظ..

رد بنفس الطريقة: لا.. ملفوظ.. ملفوظ..

لم أكن في حاجة للاستفسار، وإلا ضاع الاسكتش، الذي بدأ بدخول ثلاث بنات مختلفات القامات والجمال والهيئة، واحدة منهن سمراء داكنة، تضع على رأسها منديلًا بأوية، وتلف جسدها بملاءة سوداء، وهي "تتقصع" بشكل ملحوظ، وتلوك بلسانها لبانة، أما الثانية فترتدي ثوبًا واسعًا كنا نسميه حتى العام الماضي، قبل أن يختفي، جوالًا، وتحمل على كتفها حقيبة مصنوعة من الخوص، أما الثالثة فتغطي وجهها ببرقع ومن أسفل ترتدي ملابس طويلة.

رحن يتحركن في المكان على سجيتهن ثم فجأة دوى صوت الموسيقى، وظهر طالب قصير القامة، يرتدي قميصًا "مشجرًا" وراح يغني وهو يشير إلى الفتيات الثلاث:

ودي أمي.. وخالتي.. وأختي..

ودي ستي وطنط ونينتي..

لابسين ع الموضة..

مرت كل منهن بما تلبسه، وبدت لابسة الجونلة القصيرة لافتة للنظر، وراحت كل منهن تتحرك على سجيتها. بينما قام المغني بتمثيل أنه مندهش لما يراه، وضع يده فوق رأسه. ثم عاد للغناء على طريقته:

يا اخواتي على اللي جرى لنا..

يا اخواتي على اللي حصل لي..

فجأة سمعنا صوت نفير أتوبيس، واتسع المسرح فجأة ليدخل هيكل سيارة متوسطة الحجم، وقفت عند منتصف المسرح، أمام البنات الثلاثة واللاتي راحت كل منهن تصعد إليه برشاقتها وخفتها، ورحن يجلسن فوق المقاعد، وقد بدت وجوههن للمتفرجين، ما إن جلست الفتاة ذات الحقيبة حتى أحسست أن شيئًا ما مكشوفًا من ساقيها، وعلى صوت "المحصل" أسرعت بتغطية وركيها.. بالحقيبة لكنها لم تغط شيئًا.

سرعان ما تحوَّل "المغني" إلى "المحصل" الذي وضع طربوشًا على رأسه، كأنه يرمز إلى أنه "دقة قديمة" فأمسك بحقيبته وراح ينادي: "تذاكر، يا بنات الحلال.. تذاكر"..

وقف مشدوهًا أمام الفتيات الثلاث. وتحدَّث إلى نفسه قائلًا:

– ماذا جرى.. هل هناك أزمة في "الدبلان" الآن..؟

ولما لم يجد إجابة، تساءل من جديد:

- ربما "الكستور" في أزمة ولا "البوال".. لكن بصراحة.. أحسن..

اقترب من واحدة منهن، وصاح: تذاكر..

مدت له الفتاة الأولى بعملة، وهي لا توليه اهتمامًا. نظر إلى وركيها، وقال: هذه تستحق نصف تذكرة.

ضجت القاعة بالضحك، لما يحمله التعليق من أكثر من معنى، فقد كانت الفتاة تكشف عن نصف وركيها تقريبًا، ثم مد لها بوريقة وهو يردد:

– إلهي يقصر من تذاكركن..

اقترب من الثانية، وصاح: "تذاكر" وتحدَّث إلى نفسه: وهذه تستحق ربع تذكرة.

ضحك المشاهدون أكثر. وفجأة وضعت الفتاة وركًا فوق آخر، فشدهت عينا المحصل، مثلما شدهت عيناي أيضًا، وتوقف عن الحركة قليلًا، وهو يؤدي حركة مسرحية، كأنه تجمد في مكانه. وراح يردد:

– أكيد. هذه كانت آخر قطعة في الثوب.. نصف متر.. أي والله نصف متر.. لا أكثر..

وانطلق الجميع صاخبين لما قاله، وللطريقة التي نطق بها كلامه، نظرت إلى القاعة المزدحمة، فأدركت لأول وهلة لماذا حرص هؤلاء على الحضور. لعلهم سمعوا الاسكتش مسبقًا. لاحظت أن البنات يضحكن بتحفظ، ووسط الظلام، هالني أن الكثيرات لم يرتدين الجونلات القصيرة، حاولت أن أفتش بعيني عن بعضها، لكنني أرجأت هذا إلى ما بعد متابعة الاسكتش.

اقترب المحصل من الفتاة الثالثة، الأكثر جمالًا، وكشف عن وركيها، فالتفت إلينا، وصاح:

- هذه لا تستحق تذاكر بالمرة.. أليس كذلك؟

جاءت الإجابات من القاعة تؤكد كلامه. تحولت الإجابات إلى صخب، دفعني أن أقول:

– اقطع لها.. ليس هناك واحدة أفضل من الأخرى..

ضاع صوتي وسط الصخب المتراكم. لكن فجأة، راح المحصل يرمي بتذاكره إلى أعلى، كأنه قرر أن يقدم استقالته من الوظيفة لكثرة ما رآه فيها، وللأعاجيب التي عرفها، راح يكرر أغنيته ساخرًا من زمن الجونلة القصيرة التي سوف ترتدي فيه خطيبته مثلها، وأيضًا زوجته الحامل وابنته. وسرعان ما تحركت البنات في دلال، ونزلن من الأتوبيس. ورحن يرقصن على نغمات الأغنية التي يغنيها وسط تصفيق حار قبل أن يسدل الستار.

أضيئت القاعة لبضع دقائق، بدا الحاضرون كأنهم يلتقطون الأنفاس من الضحكات الصاخبة التي أطلقها كل منهم. بحثت عيناي مجددًا عن زميل لي في القسم، أو عن شخص أعرفه، ثم راحتا تفتشان عن الأوراك الملفوفة في كلية اشتهرت بناتها بأنهن أجمل من في المدينة. اكتشفت أن كثيرات ضحكن أثناء الاسكتش لأنه يسخر من ملابسهن.

سرعان ما انطفأت الأضواء مرة أخرى. وتأهب الجميع للفقرة التالية. عندما افتتح الستار، رأينا فرقة موسيقية بشكلها التقليدي تجلس على مقاعدها. بينما وقف "سمير ملفوظ" (لا أعرف أم محفوظ) أمام الميكروفون يتلقى تصفيقًا جديدًا من الحاضرين، ثم بدأ يعلن فقرته التالية.

– الآن. مع مطربة الجامعة. ومطربة كل الجامعات..

ووسط التصفيق الحاد، راح لساني يردد معه: "ريم الحكيم".

ظهرت "ريم" وقورة جميلة، أنيقة، ترتدي فستانًا طويلًا من يراها لا يصدق أنها تلك الفتاة المنطلقة التي تفخر أنها تجلب لبلادها بالموضات

الجديدة قبل أن يأتي بها أحد آخر، لأن أمها فرنسية تعيش بين الإسكندرية وباريس. وهى أول من ارتدى البنطال الضيق، والنايلون، والهيلانكا، كما أنها أول من لبست الجونلة القصيرة في شوارع الإسكندرية التي ترتديها الآن الكثير من بنات الأحياء الشعبية خاصة كرموز، وكوم الشقافة، وغيط العنب، والورديان.

وقفت أمام الميكروفون، ترد بثقة شديدة على التصفيق، قبل أن تنطق بكلمة واحدة.. ثم بدأ عزف الموسيقى لنراها تغلق عينيها، وترفع يديها إلى أعلى، كأنها تصلي. تبدو بملابسها البيضاء أشبه بملاك يغني. بل يصدح في السماء، استطاعت أن تمتلك مشاعرنا، وأن تجمعنا جميعًا، أقسم على ذلك، أن نغلق أعيننا، ونرفع أيدينا إلى أعلى مثلما تفعل. وتجعلنا نبتهل في صورة غناء إلى الحياة، والجمال والسلام. أن يستمروا في هذه الأرض، وإلى الوطن، والأيام، والناس وإلى الحب، والبراءة والطفولة، إنها كلمات غريبة لم يسمعها أحد منا من قبل.. اهتزت قلوبنا، وارتجفت أبداننا، وتمنينا ألا تنتهي هذه الصلاة قط، لم نتمكن من التصفيق عندما انتهت، وهل يمكن لأحد أن يصفق وهو بهذا الحال من الارتجاف.

أردنا أن نطلب منها أن نعيد نفس الأغنية مرة أخرى، لكن من الواضح أن الإنسان لا يعيش مثل هذه المشاعر سوى مرة واحدة في حياته. لذا، خلا المسرح فجأة من ريم الحكيم، وبقيت الفرقة الموسيقية كأنها تنتظر أن نفيق جميعًا مما أصابنا، ثم تلتهب أيادينا تصفيقًا، ليس فقط لهؤلاء العازفين ولكن للمطربة التي اختفت.

فجأة، تنبهت أنه يجب مغادرة المكان، التفتُّ إلى الطالب الواقف خلفي كي أسأله عن الساعة، لكنني لم أجده، بل كانت هناك طالبة بدا أنها لم تخرج بعد من حالتها. لم أود إزعاجها، ووجدت نفسي أنسحب من القاعة، وأخرج إلى الحديقة مرة أخرى، كان هناك طلاب كثيرون في الطرقة. أدركت عندما عرفت أن الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف، أنني يجب أن أعود بسرعة، كي يحق لي استخدام الاشتراك الذي تنتهي صلاحيته في العاشرة مساء. تذكرت العشرة القروش التي أعطاني إياها الأستاذ "فيصل" وقررت ألا أحرم نفسي من متابعة الحفل.

رأيتها خارجة من طرف القاعة، وقبل أن أقرر هل أعود إلى المنزل أم لا، اندفعت نحوها، ترتدى بنطالًا ضيقًا، وبلوزة بيضاء خفيفة، قبل أن ينتبه إليها أحد آخر:

– رائع يا "ريم".

التفتت إليّ، وقبل أن ترد على مجاملتي سألت:

– ما رأيك.. يا شاعر؟

لم أتمكن من الرد، فقد عاجلتني: اسمع يا شاعر.. هل أعجبك كلام الأغنية؟

وقبل أن أرد، سألت: هل تستطيع أن تكتب مثلها؟

وقبل ان أهز رأسي قالت: سأعطيك رقم هاتفي.. لتتصل بي وتزورني في البيت..

وقبل أن أتمكن من التعليق كان البعض قد التف حولنا..

اليوم الثالث

مين يشتري الورد مني..

وأنا بأنادي وأغني..

هنا فقط قررت الخروج من المترل، وأن ألحق بأتوبيس الكلية المتجه إلى المنتزه.

في بداية الأمر تكاسلت، وأردت أن أستمتع بيوم أجازة؛ فلماذا يخرج الناس كل عام، في مثل هذا اليوم بالذات إلى الحدائق والأماكن العامة؟ يأكلون السردين والفسيخ، ويتركون خلفهم الزهور في حالة دمار. والزبالة فوق الأماكن التي زاروها.. لكن "ليلى مراد" أطلقت صوتها كي يوقظني في الثامنة والنصف وخمس دقائق بعد أن انتهت "همسة عتاب".

انتفضت من فوق الأريكة الضيقة التي أنام عليها. دفعت النافذة الصغيرة، كي تطل منها نسمة، وراحت "ليلى مراد" تلح على أبناء مصر أن يخرجوا من بيوتهم لشم النسيم. فاندفعت أخلع ملابسي، وراح قلبي يدق بعنف خشية ألا ألحق الأتوبيس، أنا الذي لم تكن لدىّ أية رغبة في الخروج قبل دقيقة واحدة.

عندما وصلت إلى قمة الحارة أدركت أن كل ما فعلته كان عبثًا، فلا يمكن لأي أتوبيس أن ينتظرني حتى الساعة التاسعة، وليس هناك داع

للعجلة، وما أسهل أن أتجه إلى محطة مصر لأركب قطار أبي قير وألحق بزملائي. وقفت هناك ألهث. ثم تنبهت أن ليلى مراد لم تكن وحدها التي أيقظت الذين يتحركون فرادى. أو في مجموعات متجهين إلى أماكن عديدة، الحدائق، والشواطيء. من النزهة إلى المنتزه، وشاطيء ستانلي، والأنفوشي. وسيدي بشر وغيرها. لعل هناك أسبابًا أخرى غير أغنيات "الورد جميل" و"شوف الزهور بقى واتعلم"، و"آدي الربيع عاد من تاني"، و"يا ورد مين يشتريك" و"يا وردة الحب الصافي". وفهمت أن الأغنيات التي تنطلق من "صوت العرب" و"الشرق الأوسط" و"هنا القاهرة" سمعها أغلب هؤلاء الخارجين إلى النزهات وهم يستعدون للخروج منذ السادسة صباحًا.

حفَّزني منظرهم أن أنطلق نحو محطة مصر بخطى متعجلة، فربما أصل إلى المنتزه قبل أتوبيس الكلية. لكن فجأة توقفت أمام الفتاة التي تتكلم في الهاتف، بدت سعيدة وهي تخاطب شخصًا أغلب الظن أنه حبيبها، قرأت في كلماتها التي تناثرت منها وأنا أسير إلى جوار المحل أنها تمني نفسها بنزهة تنتظرها طوال عام طويل، لا أعرف ما الذي ثبت قدميَّ في مكانهما. هل لأني أحب سماع هذا النوع من الحوارات، أم لأني قررت مخابرة "ريم" في منزلها في مثل تلك الساعة.

جاءني صوتها يحييني، سألتها:

- هل أيقظتك..؟

قالت بطريقتها المعهودة:

- كيف حالك يا "واد"..؟ من أين تتكلم؟

أعرف أنها تستيقظ في الخامسة صباحًا، تأخذ دشًا باردًا حتى لو في منتصف الشتاء، ثم تحتسي الشاى باللبن، وتدير الجرامفون على واحدة من الأوبرات العالمية، ثم تجلس لقراءة كتب باللغة الفرنسية. تفعل ذلك كل صباح وتبدأ يومها في العاشرة. سألتها:

– أين ستشمين النسيم؟

بادرتني بسؤالها: وأنت أين ستشمه؟

أجبت: في المنتزه.. مع الرحلة..

امتزج صوتها بسخرية وهى تردد: خيَّبك الله.. هل هناك من يذهب في رحلة مع الكلية؟ كلهم غجر..

بطريقتها المألوفة في الكلام عاجلتني: ما رأيك يا "واد" أن ترى أشخاصًا لا تتخيل أن تقضي معهم شم النسيم.

كدت أن أقول لها أنني منذ أن زرتها أول مرة، وأنا في كل مرة أرى أشياءً وأشخاصًا لم أتصور قط أن أصير منهم: فنانين، وأدباء، وأساتذة جامعة. وصحفيين مشاهير، ورجال سياسة. نظرت إلى صاحب المحل وأدركت أنني ربما أدفع مكالمة لمدة ثانية. فقلت منهيًا المحادثة:

– انتظريني.. سوف آتي لك حالًا..

قالت قبل أن أضع السماعة: لا تتأخر يا "واد".

وهل لي أن أتأخر. وددت أن أخترق المسافة إلى مترلها الواقع في محطة الرمل في دقائق معدودة، لكن أتوبيس مدرسة العباسية اعترض طريقي. وقف أمامي يطلق نفيره، كأن الأستاذ فيصل يتتبع مسيرتي. ناداني، وهو بداخل الأتوبيس:

– اركب بسرعة.

نظرت إلى تلاميذ مدرسة العباسية الثانوية الذين يتطلعون إلى الشخص الذي أوقف الأستاذ فيصل من أجله الأتوبيس، سرعان ما أدركت مصيري، فلن أذهب إلى "ريم" كي أقابل الأشخاص الذين ما تخيلت قط أن أقضي وقتًا معهم، ولن أكون في صحبة أجمل بنات كلية الآداب في رحلتهن إلى المنتزه. قلت مترددًا:

– أنا ذاهب إلى المنتزه..

رد بحماس: ونحن أيضًا.. اركب..

أدركت أنني قد وقعت في فخه، فأنا أعرف أن الرحلة التي ينظمها كل عام للمتفوقين رياضيًا من المدرسة تذهب إلى حديقة النزهة. لم أتوقع أن تكون رحلة هذا العام إلى المنتزه، لاحظ ترددي. ضحك، التفت إلى الطلاب وقال:

– زميلكم في كلية الآداب.. وأنتم تعرفون كلية الآداب.

قلت مازحًا: خاصة قسم اللغة الفرنسية..

صاح السائق ساخرًا: يا وعدي..

ردد طالب خيِّل لي أن صوته أقرب إلى "نادر وهيب":

- اللهم اجعلنا من بركاتك.

ابتسمت، ردد الأستاذ فيصل بحماس، وهو يضحك قبل أن يغلق باب الأتوبيس القديم:

– سلم لي على "الدنيارة"..

رحت أسبق الأتوبيس الذي سار إلى جواري، الطلبة بداخله يلوحون بأياديهم، ويهللون، كأنهم يتبركون بي، أو يحسدونني على الدنيارة التي سأذهب إليها.. حاولت أن أبتعد عن الأتوبيس، بدا كأنه يطاردني، رأيت الأستاذ فيصل يبتسم ابتسامته المعهودة. فهو يعرف "ريم" جيدًا، منذ أن رويت له عنها، منذ أن أعطتني رقم الهاتف، وأخبرته أنها تود أن أزورها. في البداية تردد، واقترح ألا أذهب إلى منزلها. وبعد عدة أسابيع أخبرني أنه يتمنى لو تعرف إلى الفتاة، ليس لأن أباها أحد كبار تجار القطن في البورصة، وليس لأن أمها الفرنسية تتكلم ثماني لغات، لكن كي يطمئن أن كل ما أقوله عنها صادق مائة في المائة. وهل يعقل لأحد أن يصدق أن فتاة، صارخة الجمال مثل "ريم" يمكنها أن تجالس شابًا مثلي في شقتها الواسعة التي تبلغ مساحتها فدانًا على أقل تقدير، يجلس الاثنان وحدهما يستمعان

للموسيقى، أو يتحدثان عن أجمل الأسطوانات الغنائية في العالم الكلاسيكي منها والحديث؟

رأيته يغمز لي، قبل أن ينحرف الأتوبيس يسارًا، ويختفي، كأنه يؤكد لي أن أبلغها تحياته. إنها أيضًا تعرفه، فقد حدثتها عنه طويلًا، وقرأت عليها قصيدتي، التي كتبتها ليلة خطبته. وأهديتها إلى عروسه، بدت الصغيرة كأنها لا تفهم ماذا تعني الكلمات الموزونة عن خطيبها النحيف المليء بالشهامة وقوة الشخصية، عندما سمعتها ريم قالت:

– القصيدة ركيكة.. لكنها صادقة..

رحت أدافع عن كل كلمة كتبتها، فلا يمكن أن أكتب في الأستاذ فيصل، بشكل خاص، قصيدة ركيكة. حاولت أن أقنعها أن علاقتها بالشعر العربي ضعيفة، ومن الأفضل أن تقرأ الكثير من الدواوين الشهيرة.

عندما دخلت من باب شقتها الواسعة، قلت:

– الأستاذ "فيصل" يهديك السلام..

ترتدي نفس الملابس المعتادة.. سألتني: هل تناولت فطورك؟

قلت: لماذا لا تذهبين إلى المنتزه؟

- سألتك هل تود الخروج..؟

هززت رأسي.. سألت من جديد:

- هل تود أن تذهب إلى سيدي عبد الرحمن؟

لم تتركني أجيب. قامت من مكانها، وغابت لتعود حاملة صينية الشاي الفخمة. وعليها أكثر من كوب، وأبريق ومياه ساخنة، وأكياس قهوة وشاي كي أختار ما أشاء. جذبت علبة بسكويت من فوق المائدة مثلما تفعل في كل مرة. ثم اختفت من جديد، لتعود مرتدية ملابس الخروج، بدت بسيطة، بنطالها، وبلوزتها الحمراء وحقيبتها المصنوعة من القش، تأهبنا للخروج، قلت:

- والأكواب؟

- فوزية سوف تتولى الأمر..

بعد قليل، انطلقت سيارتها فوق طريق العجمي.. فوق المدق الضيق إلى مكان لم أره من قبل. خلت أنني في فيلم سينمائي وأنا جالس إلى جوراها. بل أنا في هذا الفيلم منذ ان زرتها في شقتها الواسعة أول مرة. وأنا أصبح شخصًا يتجول في الأماكن الواسعة التي تندرنا نحن الأصدقاء أن هناك أشخاصًا يعيشون بداخلها، أثاث عتيق، لوحات قديمة على الجدران، وطريقة غير مألوفة في تحية الضيف، وتقديم الشاي أو المشروبات له. تصورت نفسي في البداية، أنني حين ينغلق باب شقة على اثنين من جنسين مختلفين، فلابد أن توسوس اللذة لكلينا أن نتعرى ونتأوه. لكنها لم تترك فرصة للجالس أمامها أن يفكر أن هناك شهوة جنسية وشقتها مليئة بالكتب المتناثرة في أماكن متعددة تنتظر من يقرأها، أو لعلها انتهت من

التهامها، والأسطوانات دائمًا إلى جوار المسجل الذي لا يتوقف عن البث، والحديث عن الوطن الجريح الذي هزمه الإسرائيليون، وتآمر عليه الأمريكيون، والطائرات التي تطلع من وقت لآخر لتضرب أعماق مصر كما تشاء، والرادار الذي تمت سرقته في البحر الأحمر.

جالسة إلى جواري بنفس الزي الذي تفضله كلما خرجت من المترل، بنطال كاوبوي جاءها خصيصًا من فرنسا، وبلوزة بيضاء خفيفة، أما شعرها فقد عقدته بتوكة بسيطة، بدت مختلفة تمامًا عن الفتاة التي تعرفها كلية الآداب، فهذا البنطال الممزق عند الركبة يؤكد أنها تؤمن بالهيبز الذين ينادون بالسلام على الأرض ويرتدون الملابس الرثة، ويطلقون شعورهم بلا تصفيف، ويحملون آلات الجيتار، ويتصرفون على السجية كما يشاءون. يغنون، بينما تنطلق الروائح النتنة من بعضهم. يفكرون بنفس الطريقة التي غنت بها منذ أشهر طويلة في حفل الكلية، تصورنا أيامها أنها تغني للسلام الوطني، فإذا بها تشرح لي فيما بعد أنها تؤمن بسلام البشرية عامة، وأن الوطن ليس إلا جزءًا من العالم.

سألتها:

– هل يتناسب السلام مع الملابس الممزقة؟

ابتسمت عبر السيارة الصغيرة المكشوفة، وفهمت أنني أفتح الموضوع من جديد:

- اسمع يا "واد".. انت عبقري.. لكن غبي.. أنت تأخذ القشور مثل الناس.. تتصور أنك "خنفس" بمجرد أن تلف خصلة شعرك مثل "رنجو ستار". وإنك ستكون "هيبز" لو لم تمشط شعرك..

بدت أنها انتبهت أنني أطلقت لشعري العنان دون تمشيط وأنني تركت الزرار الأول من قميصي مفتوحا كي أكشف شعيرات تنبت الآن في صدرى. قلت:

– وأنت.. هذا الكاوبوي الممزق.

ردت بجفاف باد:

- أولًا.. ليس اسمه كاوبوي.. اسمه جينز.. هذا البنطلون الممزق أغلى من بدلة سموكنج جديدة.. إنها موضة يا عبيط..

ابتسمت في بلاهة، قلت:

- أتعرفين أنها أنسب موضة دخلت بلادنا، تناسب كثيرًا أهالي كرموز.

صاحت كأنها تتذكر الزيارة التي جاءت فيها إلى غرفتنا الصغيرة فوق السطح:

– وماله.. لماذا تتكلم عن هذه الغرفة باعتبار أنها ضيقة؟

وددت أن أذكرها بما حدث في ذلك اليوم، حين جاءت لترى غرفتي التي كسوت كل جدرانها بصور: "ألفيس بريسلي"، و"شون كونري"، و"ستيف ماكوين"، و"مارلين مونرو"، و"جوني هاليداي"، وغيرها التي انتزعتها من مجلة "سالي لوكوبان". جاءت ومعها صديقة عمرها راضية، وأحد المهووسين بالسينما "حكيم". بدت "ريم" و"راضية" في غاية الدهشة من غرابة المكان، أمّا "حكيم" فأخذ يلعن ويسب في من كان سبب الزيارة، لأن هذه الغرفة تذكره بأيام الفقر التي عاشها في مثل هذا المكان. أما "راضية" ابنة أحد الباشوات السابقين، فقد رددت "آه.. أورجينال" وعلقت "ريم" ببساطتها المتناهية "هنا يكون السلام الحقيقي للإنسان"..

قلت والسيارة تنطلق بنا فوق المدق الضيق نحو "سيدي عبد الرحمن":

– ما أجمل الحياة في الصحراء!!

لم تعلق.

سألت: هل يشم أحد النسيم فوق الرمال..؟

كنا قد أوشكنا على نهاية الرحلة. انطلقت السيارة فوق مدق رملي نحو مبنى أصفر، محاط بأسوار عالية، ما إن اقتربنا منه، حتى أطلقت نفير سيارتها، فانفتح باب خشبي عتيق، أشبه ببوابات القلاع القديمة، وظهرت وراءه امرأة متشحة بالسواد، حيتها "ريم" قائلة:

– كيف أحوالك يا أم حسين؟

ردت المرأة بلهجة بدوية:

- زين والله.. يا ست "ريم"..

اقتربت المرأة من نافذة السيارة، ورأتني أبتسم لها، سألتها "ريم":

– ما الأخبار؟

ردت المرأة بنفس اللكنة: جاءوا جميعًا يا ست ريم.. عدا الست "زكية"..

لوَّحت بيدها، قبل أن تستكمل قيادتها للسيارة داخل مكان هو أقرب إلى الجنة، لا يفوح منه النسيم فقط، بل كل أنواع العطور، بما تحوطه بكل ما يخطر على البال من زهور، ويطل مباشرة على البحر بلونه الغريب الذي لا نألفه في شواطىء الإسكندرية.

تركتني أتلفت حولي في هوس ملحوظ، لا تستطيع عيناي أن تلتقطا كل ما بالمكان من خضرة، ولا يمكنها أن تصلا إلى نهاية الأفق البعيد. خلت أنني داخل فردوس أرضي، قرأت عنه في كتاب "أرض الأحلام" لزكي نجيب محمود. فجأة سمعنا نفير سيارة من خارج البوابة الخشبية. علقت:

– أكيد إنها زكية..

لم يوقظني كلامها من حلمي المبهر الذي سبحت فيه بمجرد دخولي من البوابة الخشبية، فجأة أوقفت السيارة في الممر، ونزلت وهي تصيح هاتفة:

– إيه.. يا زكية.. كل سنة وأنت طيبة..

سمعت صوت زكية يرد التحية، لم أهتم بالالتفات إليها عندما أحسست أنني أعرف صاحبة الصوت وأنني سمعتها كثيرًا تتكلم، ما إن رأيتها حتى عرفت فيها الممثلة "زينات زين العابدين". رأيتهما تتبادلان القبلات وتضحكان كصديقتين حميمتين. وجدت نفسي أفتح باب السيارة، وأنزل لأراها عن قرب، أدركت عندما سمعت "ريم" تكرر كلمة "زكية" أكثر من مرة أن هذا هو اسمها الحقيقي. رأتني فتوقفت عن الابتسام، وقالت:

– من هذا الوليد الحليوة.. يا ريم؟

التفتت ريم نحوي وأشارت أن أقترب، وقالت:

– إنه شاعر. زميلي في الكلية..

بليونة واضحة، تحاول أن تتصاغر، ناغمت الممثلة صوتها وقالت:

– شاعر.. رائع، وهل هناك شعراء بمثل هذه الحلاوة؟

غيرت "ريم" نبرتها وبجدية ممزوجة بالهزل والمزاح، وقالت:

– لا.. وحياة أمك.. ليس من إياهم.. قلت لك إنه شاعر..

استدارت الممثلة إلى سيارتها وأشارت إلى شخص بداخلها، لم نلتفت إلى وجوده حتى الآن، قالت بنفس الميوعة، وهى تناغم كلماتها بضحكات رنانة:

– وأنا أيضًا.. معي مطرب.. ولا كل المطربين.. تعال يا "رامي".

قالت "ريم" بمزاح متعمد، مليء بكل السخرية: "رامي".. أحمد رامي.. شاعر الشباب.

بكل أدب، نزل الشاب الصغير – الذي يماثلني في العمر – من السيارة، لكنه بدا عملاقاً، عريض الكتفين، وقد أطلق لشعره العنان فبدا أشبه بالبنات، يضع سلسلة ذهبية عريضة حول رقبته فتدلت على قميصه المزركش بعشرات الألوان المتداخلة وقد فك أزرار قميصه العليا، أما بنطاله فكان واسعًا بشكل ملحوظ، أمسك نظاراته السوداء بين أصابعه، وهو يقترب منا، وراح يصافحنا نحن الاثنين، بدت يداه قويتين وهو يضغط على كتفي. بينما لم تتوقف الممثلة عن التأمل فيه بإعجاب، وهى تمط شفتيها: إنه ملاكي الحارس.

قالت "ريم": بالتأكيد، إنه يغني لك في الحمام.

ردت الممثلة: في الحمام.. يا عيني عليه.. أيضًا على السرير وساعات في المطبخ.

علقت ريم ساخرة: يا روحي عليه.. إذن، فمستقبله هائل..

- لا.. مطرب متميز أكيد..

صاحت الممثلة ببراءة: من يراك يقول إنك سمعتيه..

بسخرية ملحوظة، وهى تتأمل جسده العملاق، علقت "ريم":

- وهل هناك أفضل من هذا المطرب؟

وقف الشاب وقد عقد يديه، كأنه ينتظرنا أن نحكم على موهبته، بينما بدت الممثلة كأنها أحسنت الاختيار. قالت "ريم":

- وهل سيأكل فسيخ مثلنا..؟

ردت الممثلة بتأفف واضح: فسيخ.. لا.. إنه قادم من باريس لتوه.. لم يسمع عن هذه الأشياء.

قالت ريم وهي لا تزال تتفحص الجسد العملاق المبهر الذي لم تنجب السينما المصرية مثيلًا له حتى الآن:

- يشبه فهد بلان..

بدت ريم كأنها فتحت موضوعًا للحديث، فما ان سمعت الممثلة الاسم، حتى قالت:

- ريم.. ألم تسمعي آخر خبر؟ لقد طلق فهد بلان مريم فخر الدين.. إنه خبر جديد "نوفي" لم تنشره صحيفة أو مجلة بعد..

بدا الخبر كأنه لا يهم ريم بالمرة. فقامت بدورها بتغيير الموضوع، وسألتها:

– هل جئت بالمايوه الأحمر؟

وضعت الممثلة يديها حول المطرب وهي تقول بنفس الدلال والميوعة.

– أحمر.. أحمر يا عبيطة.. الموضة هذه السنة بلا مايوهات.

قلت وأنا أنظر إلى الناحية التي اختفيا فيها:

– أنثى جميلة..

بدوت كأنني مسست فيها شيئًا أغاظها، فقالت بتحد واضح:

- ماذا بك يا أبو عبط.. وحياة أمك.. كل المايوهات توارت أمام "ريم المخزنجى".. لسنا شيئًا بسيطًا في البلد.

حاولت أن أبعد عن مخيلتي صورتها وهي ترتدي مايوه بقطعتين، تبدو فيه أجمل بكثير من زينات زين العابدين، إحدى أجمل الممثلات في السينما طوال خمسة عشر عامًا. سألتها:

– هل ستقيمون المسابقة هذا العام؟

ضحكت، وقد بدأت تفهم نوايا خبيئة تحاول أن تلعب في داخلي فقالت كأنها تتغزل في النوايا:

– ألم تسمعها تقول إن الموضة هذه السنة بلا مايوهات؟

توقفت قليلًا، ضربت كفًا بكف، وهي تشير أمامي في طريق معاكس قائلة:

- يبدو أنني أخطأت بإحضارك إلى هنا. فأنت عظمة خضراء..

قبل أن أبرر كلماتي، أو أن أدافع عن نفسي، ضربت كفيها ببعضهما من جديد، أدركت أنها تكرر جملتها التي ترددها، بين الحين والآخر، كلما حاولت أن أكتشف من تكون بالضبط.. "غريبة.. كل هؤلاء يفكرون بأعضائهم الجنسية، حتى أنت؟".. وددت أن أكررها قبل أن أقولها، لكنها ابتلعتها. وتمتمت:

– هذا عالم آخر.. المدينة أفسدته.. تعال لتراه..

تؤهلني للدخول إلى عالم غريب لا يمكن لأى شخص أن يتصور أنه جزء من مصر. خاصة في هذه الأيام العجاف، التي تمتلىء فيها نشرات الأخبار بأنباء الطائرات الإسرائيلية تضرب أعماق المدن، وتقتل أبرياء في مدرسة بحر البقر. وزيارات الفنانين للجبهة من وقت لآخر، ولا تزال نوافذ بيوتنا مدهونة بالأزرق الداكن حتى لا ينفذ الضوء خارجها أثناء الليل، أما العمارات في الشوارع فقد سدت بسور سميك من الطوب الأحمر.

إنهم هناك، حول حمام سباحة صغير، جاءوا بملابسهم المبهرة المزركشة يتبادلون القبلات عند اللقاء، لم تستح "ريم" أمامي أن تقبِّل كل

من يحييها على خديه، سواء من النساء أم الرجال، تناثرت زقزقاتهم وقد ملأتهم البهجة، فتشت في وجوههم عن شخصيات شهيرة أخرى فلم أجد. كانوا جميعًا في انتظار وصول ريم باعتبار أن أمها صاحبة هذه الفيللا التي تطل على البحر، والمحاطة بسور ضخم، تملأها الخضرة وبداخلها الحمام الصغير الذي جلسنا حوله. خلعت بعض النساء والبنات ملابسهن وتمددن فوق مقاعد طويلة تحت الشمس، رغم برودة الجو التي يمكن لمسها، أما الرجال فقد راحوا يتباهون بشعورهم الطويلة، كأنهم يعلنون أنهم يسيرون على أحدث موضة، ولأن هذه الأيام هى الهيبية، فقد بدا هذا في شعورهم، وملابسهم، والأغاني التي تنطلق من مسجل كبير وضعه أحدهم، لعل الآخرين يفكرون في الرقص على أنغامه.

رحت أبحث عن صدر عار من النساء، مثلما توقعت من كلام الممثلة، أو أن أراهم يرقصون، لكن يبدو أن حالة من الخمول استبدت بهم، كأنهم جاءوا للاسترخاء. أو لكي يخلو كل منهم إلى رفيقه، وجدت نفسي وحيدًا بعد أن اختفت "ريم" عن الأنظار. لم أسأل نفسي ماذا تفعل، راحت عيناي تبصان على الآخرين ربما لأكثر مرة في حياتي. انتابتني خشية شديدة أن يلمس شخص كتفي. فالتفت لأجد الأستاذ "فيصل" يشدني من ملابسي، ويخرجني بعيدًا عن الطابور، ويأمرني أن ألم كل هذه الملابس التي خلعوها، وأضعها في السلة، لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل بها بعد ذلك. هل أحرقها، أم ألقي بها في البحر، أم نقيم المسابقة على ارتدائها وخلعها؟

قررت أن أخرج من الدائرة، وأن أسير إلى الشاطىء القريب كي أتمشى مثلما يحلو لي أن أفعل كلما وجدت نفسي قريبًا من المياه. سمعت ريم تناديني، رأيتها تضع على وسطها شيئًا أشبه بملابس الطباخين، أسرعت إليها، فاحت روائح بيض وفسيخ ورنجة. سألت:

– لماذا لم تتعرف إلى أحد.. الناس هنا جاءوا لقضاء وقت جميل؟

هززت رأسي:

– في بعض الأحيان.. مراقبة الناس أجمل من الحديث معهم.

سارت أمامي، كأنها تدعوني أن أمشى وراءها، قالت:

– هل يمكن كتابة قصيدة عن هذا العالم.. يا فيلسوف؟

– هل تعتقدين أن هذا وقت الشعر.. كل هؤلاء الجميلات..

قاطعتنى:

– يا واد لا تكن غبيًا.. كل هذا جمال خارجي.. كل واحدة هنا يكمن بداخلها صندوق زبالة أخلاقية.

– إذن. لماذا تصادقينهم؟

– أسئلتك سخيفة، وليس عندي إجابات لها.. تعال لتساعدني في إعداد الطعام..

في المطبخ بدأت تغني بصوتها الخلاب، وهي تقطع شرائح البصل، وقطع السردين والفسيخ والرنجة، بدت أغنيها غريبة لا يمكن أن تتناسب مع الأجواء التي تحوطنا. إنها قصيدة مصر، التي كانت أول أغنية سمعناها في إذاعة القاهرة، عقب نشرة الأخبار، بعد أكثر من أربعين يومًا من العزاء العام الذي عشناه بعد رحيل الرئيس عبد الناصر. لم تكف الإذاعة طوالها عن إذاعة آيات القرآن الكريم، وكانت تلك أول موسيقى نسمعها، جاء صوت أم كلثوم شامخًا مثلما تحاول "ريم" أن تطالها بصوتها الذي يجتهد للاقتراب من ست الكل.

أجل.. إن ذا يوم لمن يفتدي مصر

فمصر هي المحراب والجنة الكبرى

وجدت نفسي أغني معها، بدأت أفعل على استحياء، لكنها لكزتني كي أستمر، توقفت عن التطلع عبر نافذة المطبخ إلى الضيوف الذين وقفوا قريبًا، شبابًا وبناتًا يتبادلون القفز فوق بعضهم البعض، حيث يثني أحدهم جذعه، كي يقفز زملاؤه عليه، ثم يقوم بدوره بالقفز على زميل آخر، كانوا قد تحرروا جميعًا من ملابسهم الخارجية ولمعت المايوهات البكيني تكشف فتنة النساء، وددت أن أتوقف، وأن أسأل "ريم" إن كانت ترتدي لباس بحر مثلهم، لكنها لكزتني مجددًا أن أكمل الغناء.. توقفت فجأة، وهي تتنهد، كي تقول:

– صوتك نشاز..

تنبهت إلى عيني المتأرجحتين بين النظر إليها، ثم عبر النافذة، فتوقفت عن مواصلة الكلام.. تنهدت وقالت:

– يبدو أن أخلاقك ستفسد..

– هل تنفقين كل هذه النقود لإطعام هؤلاء الناس؟

– لا تقلق بشأن النقود.. المهم النجاح.

كانت قد انتهت من إعداد كل شيء. لم يعد أمامنا سوى أن نفترش الأطباق الكبيرة المليئة بكميات من الأسماك المملحة بأنواعها المختلفة، ومشهيات لا أعرف أسماءها، علينا أن نفترش مساحة كبيرة من الأرض الخضراء. لذا ذهبت أم حسين تعد المكان لفرشه بالأطعمة. فجأة. جذبت مني الطبق، كأنها أحست أن هذه ليست مهمتي، ثم قالت في ضيق:

– تأخرت المرأة كعادتها.. الساعة ثلاثة إلا ربعًا..

أطلت إلى الخارج برأسها، فانحسرت بلوزتها، ورأيت جزءًا من ظهرها الناصع البياض ونادت "أم حسين". ارتبكت، وقلت مرتجفًا وأنا أبعد عن مخيلتي منظرها بلباس البحر:

– غطي نفسك.. ظهرك بان..

أكملت نداءها كأنها لم تسمعني، كررت جملتي فقالت وهي لا تزال تنظر إلى الخارج:

- وهل هناك أحد هنا؟

فجأة دخلت المرأة العجوز، التفت إليها، وهي تلهث.. وترتبك حروفها، قالت:

- لماذا تأخرت يا "ولية"؟

اهتزت يد المرأة، بدا كأن شيئًا بشعًا قد حدث. حاولت أن تستجمع قدرتها على الكلام، وقالت:

- يا ست "ريم".. "الست زكية"..

وبكل ما تملك من شجاعة صرخت، وهى تقول:

- لا.. هذه المرة.. الأمر لم يعد يحتمل.

وتكهرب المكان تمامًا.

اليوم الرابع

سألته وهو يخط بطباشيرة مدببة فوق قطعة القماش:

– حضرتك عم عبده؟

دون أن يرفع رأسه المستدير، ونظارته البيضاء. وطاقيته التي تغطي جزءًا من شعره الأبيض، راح يغني بطريقة كأنه اعتاد أن يفعلها كثيرًا:

لا والنبي يا عبده..

لا والنبي يا عبده..

توقف فجأة عن الغناء، كأنه أدى دوره فيه، ودون أن يرفع رأسه أيضًا تكلم كأنه في حالة مواجهة معي:

- كله عم عبده.. عم عبده.. ولماذا "لا والنبي يا عبده".. لماذا لا نقول "لا والنبي يا فتحي" والا.. مراد.. والا عزيز.. لا.. لا.. عزيز هذا له أغنية أخرى..

ثم راح يغنى من جديد: "يا عزيز يا عزيز.. ضربة تاخد الإنجليز"..

بدا كأنه استدرك نفسه، رفع رأسه نحوي، بدا ذقنه غير الحليق، كأنه لم يمسسه بموسى منذ عدة أيام وشاربه الأبيض الخفيف. فرآني أبتسم لطريقته في الكلام. لكنه لم يعبأ بابتسامي وقال:

- صحيح.. لو نظرت إلى الأغنيات، فستجد أن لكل شخص أغنيته المفضلة. أغنية على اسمه. وأغنية على اسم حبيبته. مثل الملابس بالضبط.. لكل واحد "قصته المفضلة". نعم يا سيدي.. أنا عم عبده..

ثم سأل: بنطلون أم دبلة؟

ضغطت على اللفافة التي أحملها بين يدي، كأنما أتأكد من سمك قطعة القماش التي بداخلها، والتي جئت بها إليه، وقلت:

– أنا من طرف الأستاذ فيصل.

استمر في عمله، وراح يتكلم:

– مرحبا بالأستاذ "فيصل". وكل من يرسله الأستاذ فيصل. كيف حاله؟..

هززت رأسي: طيب.. يقول إنك أحسن "خياط" في الإسكندرية.

وبثقة مليئة بالسخرية والجدية ردد:

- ألم تعرف ذلك قبل أن يقوله لك؟

- طبعًا.. كنت أقرأ عنك في الصحف.. مرة أو مرتين..

وقبل أن أنتهي من جملتي رفع رأسه عاليًا، ودفع به إلى الخلف وهو يجلجل من الضحك. ويقهقه كما لم يفعل طوال يومه.. استمر يضحك وهو يردد: "الله يجازيك.. يبدو أنك ابن نكتة".. ثم فجأة توقف وراح يسعل بشدة، خرجت الحروف من فمه ممزوجة بالسعال. فخلت إن روحه سوف تخرج مع كلماته. انتابني الجزع، سألته:

- هل آتى لك بمياه..؟

حاول أن يتماسك. أدار لي ظهره، وقال وهو لا يزال يسعل:

- اضربني هنا..

أولاني ظهره العريض، اكتشفت كم هو قصير وبدين. حثني أن أضربه. ففعلت ذلك في تردد وبرفق، زعق قائلًا:

- يا جامد.. اضرب يا جدع.. بعزم قوتك.

وبعزم قوتي ضربته. ليس على سبيل المزاح، بل لأنني تصورت أن مثل هذا الظهر لن تؤثر فيه مثل هذه القوة.. أطلق زفرة من فمه، والتفت إليّ قائلًا:

- تعال إنت زبون آخر النهار.

دلف إلى داخل المحل فأضاء النور، وتركني أنظر إلى المكان لأتعرف عليه. حيث تكدست قطع القماش والقصاصات فوق بعضها بما يوحي أن وراءه عملًا يكفيه سنة بأكملها، وأنه من المحال أن يستطيع التعرف على قطعة قماش أي زبون بسهولة، ضغطت على اللفافة في يدي، وتخيلتها قد تاهت وسط الركام.

قال وهو يفسح لي مكانًا على مقعد صغير:

- اجلس. يبدو أن الأستاذ فيصل لم يقرأ الجرائد التي تقول عنها. يرسل لي الزبائن، لكنه توقف عن التفصيل عندي منذ فترة طويلة..

قلت كأنني جهزت الإجابة:

- عريس..

جلس فوق مساحة صغيرة، وسط ركام قطع الأقمشة. وقال بصوته المميز:

– لا. ليس هذا هو بيت القصيد..

– لقد فسرت لي سر عدم أناقته..

– كيف تقول هذا.. فيصل.. لعلمك، هو أحسن واحد يجيد اختيار الألوان، وعلى الموضة.

صدمتني كلمته، فهل الأستاذ فيصل فعلًا يرتدي ملابسه على الموضة. هو الذي يرفع البنطال إلى نصف بطنه أيام ازدهار "الجمسنة"، ويصر على ارتداء البنطلون أبو ثنية، ولم نره بعد بالشارلستون. بدا الرجل كأنه قرأ أفكاري وسط نور المحل الذي أضاءه، فقال:

– لا تتعجب. إنه هكذا فعلًا. ساعده طوله في ذلك.

انظر كم هو رشيق، وطويل، انظر إليه مثلًا في الزي الرياضي.

تذكرت شكله وهو يملأ ملعب مدرسة العباسية بخفته، بملابسه الرياضية البيضاء التي كانت تلفت نظري بنصاعتها، والحزام الأسود الذي يلفه على الشورت. كم جعلنا ننتظر حصته لنراه يتحرك أمامنا كأنه راقص باليه ماهر، فلم نكن نؤدي التمرينات قدر الاستمتاع بمشاهدته وهو يطلب منا أن نرفع أيدينا، أو نحرك أقدامنا من أجل اكتساب لياقة أفضل. قطع عم عبده أفكاري، وقال:

- فيصل لا يلبس إلا ما يناسبه. وما يقتنع به. انظر مثلًا شباب هذه الأيام. الشارلستون الذي طلعوا فيه.. كله شارلستون.. هذا يطلب ثمانية عشر وذاك ثمانية وعشرين.. والكل يرتدي الشارلستون. لكن فيصل له فكر آخر.

نبهني إلى أمر لم يكن ببالي؛ فالموضة الآن أن يكون الشارلستون أربعًا وعشرين سنتيمترًا، كطول فتحة البنطلون من أسفل، سمعت أحدهم

يعاير زميله أن بنطلونه ضيق فهو يرتدي مقاس اثنين وعشرين. إنهم يفضلون الشارلستون ويتفاضلون فيما بينهم حسب طول فتحة البنطلون.

عندما قابلني الأستاذ فيصل ظهر اليوم وهو عائد من المدرسة، سألني عن وجهتي، أبلغته أنني قررت ارتداء الشارلستون، وأن معي قطعة قماش سأذهب بها إلى الخائط. وعلى الفور سألني إن كنت أعرف شخصًا بعينه، فأجبت بالنفي، عاود السؤال إن كنت أود خائطًا مناسبًا. ثم وصف لى مكان محل عم عبده. هناك في شارع متفرع من سوق الميدان. أحسست من إطرائه على الرجل أنني سوف أجد محلًا مضاءً بالنيون، وتملأه الواجهات الزجاجية وبه أكثر من شخص يستقبلك. لكنني لم أصدق عيني وأنا أرى حانوتًا صغيرًا، أبوابه من الخشب القديم وليست عليه أية اشارة تدل على مهنة المحل، أو اسم صاحبه. تأكدت أن هذا الرجل لا يمكنه أبدًا أن يصل البنطلون على طريقة الشارلستون.

تنهد، وبدا كأنه يفكر فيما اعتمل برأسي. وقال:

- هذا المحل دخله باشوات إسكندرية، ورجالها البارزون. لا يغرنك أنه قديم وضيق. هل تعرف ماذا كان اسمه قبل أن تقوم جماعة الثورة بالحكم؟ كان اسمه "الباشوات" لا يغرنك أنه قديم. ألا تعرف أن الدهن في العتاقي؟

ضحك ضحكة حزينة، هز رأسه وقال:

- لا تذكِّرني.. من فضلك..

بدا كأنه هو الذي يذكر نفسه بما كان:

.. هل تسمع عن عبد الحميد باشا صبري. كان زميلًا لي في المدرسة.. مدرسة العباسية الثانوية. مدرسة الأستاذ فيصل. عبد الحميد باشا هو الذي أشار عليّ أن نسمي هذا المحل بهذا الاسم. قال لي: اسمع يا عبد الحميد.. ما رأيك أن نقترح على أبيك أن يغير اسم المحل من خياط على الموضة إلى خياط الباشوات طبعًا.. باعتبار أن الباشوات وأولاد الباشوات وأخوات الباشوات وقرايب الباشوات كلهم يرتدون على الموضة. أنا عرضت الفكرة على أبي. قدَّس الله روحه. فاعتقد أنني أسخر منه، وتطلع حوله إلى المكان، وقال: وهل هذا يناسب أي باشا.. أو حتى أفندي.. ولما نقلت هذا الكلام إلى عبد الحميد باشا صبري.. صديقي وزميلي.. قال لى: يا أخي.. الباشوات عندهم روح اشتراكية. يعني عندما يعرف سكان الجمرك أن عبد الحميد باشا يطرز عند تادرس.. على فكرة.. أبي كان اسمه تادرس. يفهمون أن الباشا رجل متواضع وطيب، وبسيط مثلهم. وعندما يرونني آتيًا من أجل تفصيل بدلة تشريفة، أو بالطو جديدًا، يشعرون أن لهم قيمة.. فيحدث اتصال بين الناس وبين الباشوات. وعندما تكون هناك انتخابات يجد أبناء المنطقة يناصرون عبد الحميد باشا.. فهمت لماذا أصبح عضوًا في البرلمان؟

"المهم.. كلمة من هنا.. وكلمة من هناك. وافق أبي. وتمت بعض التجديدات في المحل.. وأنشأت هذه الصندرة – وأشار إلى سقف خشبي متهالك – واستعان أبي قدَّس الله روحه بأخي الذي لم يتمكن من الحصول

على البكالوريا. أما أنا فكنت مدرسًا مرموقًا في العباسية.. طيلة عمري بالعباسية.. مدرس.. لم أتغير.. إلى أن خرجت منذ عشر سنوات إلى المعاش.. أيامنا كان الموظف يشعر بالعيب لو عمل أي شيء بعد الظهر.. عليه فقط أن يجلس على المقهى.. ولكن عبد الحميد باشا كان له رأي آخر. قال لي أنني لو جلست في المحل بعد الظهر. مجرد جلوس. فإن هذا سوف يغير من الأمور. سوف يأتي الناس إلى المحل والأصدقاء.. وسيشيرون إليك ويقولون هذا صديق عبد الحميد باشا وربما يمكن أن ننقل شكواهم ومتاعبهم من خلال زيارتهم للمحل.. يعني.. المكان شكليًا سيكون للحياكة، وفي الحقيقة كان ملتقى للباشوات والبكوات.. يأتي في أي وقت.

تنبهت وهو يتكلم إلى الصور التي يعلقها على الحائط.. أغلبها صور قديمة لنجوم السينما في قمة أناقتهم، أنور وجدي يضع طربوشًا على رأسه ويقف أمام الكاميرا، وقد قوّس ساقه اليمنى بعد أن أسندها على مقعد واطيء. ووضع يده اليمنى في جيب بنطلونه الطويل، أما يسراه فقد وضعها على خاصريه. بدت البدلة التي يرتديها تناسب أناقة عصره. خاصة أن الصورة ترجع إلى شبابه. أشد ما جذب انتباهي ليس أن أنور وجدي بلا شارب بل كان حذاؤه لامعًا على غير العادة، بدا بنطلونه الذي به خطوط متباعدة مكويًا بعناية وبرزت ثنيته كأنه يتباهى بها. أردت أن أسال هل كان يعرف أنور وجدي، لكنه لم يترك لي الفرصة للكلام:

"يوم الافتتاح، شهد له تاريخ حي الجمرك كله.. والمنطقة بسكانها. وربما الإسكندرية. بل مصر كلها.. ووادي النيل.. والدول العربية، لا

تستغرب، هذا غير الصحافة والإذاعة والمصوراتية. هذا الشارع الذي تراه الآن على الحال البائسة افترش كله بالرمال والورود. كانت الباقات أكثر من الناس. وزراء، وأعيان، وباشوات، أو باكوات، وأعضاء في البرلمان، وأولاد بلد، وبلطجية، وسعديون، ووفديون، كله كان على كله. لو رششت الملح ما وجدت له مكانًا على الأرض. لدرجة أن صاحب الجلالة نفسه أرسل برقية تهنئة. نعم. صاحب الجلالة فاروق. نعم. أنا صعب عليَّ كتير لما مات في الغربة في إيطاليا.. هل رأيت صورته؟.. أصلع وبدين لكن بصراحة.. اسأل خياطًا ولا تسأل طبيبًا. كان رجلا أنيقًا.. مات وهو ملك.

تنبه أبي شردت، وأنا مازلت أنظر إلى صورة "أنور وجدي" توقف عن الكلام، والتفت خلفه، ثم تنهد وهو يردد:

- آه.. أنور وجدي.. الله يرحمه.. رأيت كل أفلامه. مسكين لقد مات صغيرًا.. بلا ولد أو بنت. هذا هو حال نجوم السينما، حياتهم الفنية تلهيهم عن حياتهم الخاصة. يموتون غرباء.. لا يرثهم أحد.. هل تعرف أن "أنور وجدي" جاء بنفسه ليهديني هذه الصورة. كتب عليها مخصوص من أجل أبي.. هدية إلى الصغير عبده. لو دققت في الصورة ستجد بقايا حروف الإهداء.. انظر.. انظر.. لتعرف كيف كان النجوم زمان..

ألح أن أفعل، مددت جذعي نحو الصورة، بحثت عيني في أركان الصورة القديمة عن بقايا كتابة، أو توقيع، دعكت عيني أكثر من مرة، ورغم ذلك، قال:

- صدقت.. أنور وجدي كانت له حكايات كثيرة مع أبي، قدَّس الله روحه.. كلما جاء إلى الإسكندرية يأتي إلى خياط الباشوات فيجتمع حوله أولاد الحي.. والنبي يا أستاذ أنور وقع لنا على الصورة.. ما أخبار فيلمك الجديد؟.. كان أبي يتضايق ويحاول إبعادهم عن الأستاذ أنور. لكن الرجل كان يضحك، وبضحكته الجميلة كان يقول لي: دعهم يا عم تادرس..

سكت وهو يتنهد، وبدا كأنه يحاول أن يجذب ذكرياته الدفينة في مكان بعيد، ثم استطرد:

- هل تعتقد أن هذا كان يرضي أبي.. لا.. وحياتك.. كان عمك تادرس ترزي في المقام الأول. وعندما زادت مظاهر الاحتفالات، والرواد أكثر من اللازم.. أحس أن المحل في خطر.. وأنه يجب ألا يتوقف عن العمل. ولهذا. كان يستيقظ في ساعة مبكرة.. الساعة السادسة أو قبل ذلك بنصف ساعة. ويحبس نفسه في المحل هو والمقص والماكينة.. طبعًا.. أحسن السترات كانت تخرج من هذا الباب، لدرجة أن عبد الحميد باشا أصر أن يخرج مرتديًا بدلته الجديدة من المحل. وترك البدلة القديمة التي جاء بها لأبي، يعطيها لأي شخص يستحقها، يومها كانت زفة. خرجت أمة محمد في الحي كله تزفه، كأنه سيتزوج. النساء يطلقن الزغاريد في النوافذ.. هذه الطلعة كانت سببًا في نجاحه في البرلمان. الله يرحمه كان رجلًا ذكيًا. عرف كيف يلعبها. هل هناك أحد الآن بمثل هذا الذكاء؟ المرشحون الآن في مجلس الأمة يأتون أيام الانتخابات فقط ليشربوا الشاي على المقاهي. ولا

تراهم إلا في الانتخابات التالية. هل يفكر أحدهم أن يأتي إلى هنا ليفصل قميصًت، أو حتى منديلًا؟.. لا.. هذا العصر ولى.. والحال كما ترى.. يا برنس.

وقبل أن يستطرد في كلامه، أشرت إلى صورة الممثلة الشابة الجميلة المعلقة فوق رأسي مباشرة. وسألت:

– و"زينات زين العابدين"..

دون أن يلتفت إليها، راح يفك اللفافة التي جئت بها، وبلهجة وقورة ردد:

– آه.. هي سيدة ولا كل الستات.. امرأة كاملة.. و...

بدا كأنه يود أن يقص حكايتها عندما جاءت هنا عارية، وخرجت من المحل مرتدية زي بحر أصفر اللون بقطعتين، ويومئذ جاء شباب الجمرك يحلمونها بين أيديهم، تغوص أناملهم في مناطق جسدها، فتتأوه، وتصرخ من اللذة، وتطلب المزيد وتبحث عن أكثرهم قوة وشبابًا كي يدخل بها بين الأشجار مثلما حدث في العام الماضي في فيلا سيدي عبد الرحمن التي تملكها ريم.. يا إلهي. كان يومًا عجيبًا.. انتابتني الرغبة أن أروي الحكاية للعجوز فقلت:

– وجميلة..

رد بنفس الثقة:

- طبعًا جميلة، وهل أنجبت السينما المصرية مثل جمالها لا هند رستم ولا كاميليا ولا مريم فخر الدين ولا راقية إبراهيم.

قلت بتهكم:

- شيء غريب.. إنها ترتدي ملابس..

نظر إليَّ في استغراب، وسأل:

- ماذا تقصد؟ طبعًا ملابس. لكن، وربك الحق، هذه الأزياء ليست من تفصيلنا، فنحن هنا ترزية رجالي فقط. وكي أكون صريحًا أكثر، فهي لم تأت إلى هنا أبدًا. لكنني اشتريت هذه الصورة من سوق الجمعة..

بدا كأنه يقرأ أفكاري، أو كأنه يود أن يبتعد بي عن الموضوع الأصلي. لعله يعرف الحكاية المتناثرة، ويحول دون أن يغير من وجهة نظره عنها. قلت بنفس التهكم:

– بعض الناس يبدون أكثر جمالًا بدون ملابس.. أقصد بلباس البحر.

ضحك مفتعلًا، وتحولت ضحكته إلى قهقهة. وقال:

- يا أخي.. لا تخلط الجد بالهزل..

- أنا أتكلم جديًا.

- ما هي الجدية في رأيك.. ماذا تقصد؟

- هذه الممثلة الجميلة، التي تضع على كتفها شالًا من الفراء الأبيض، وعلى رأسها توكة كبيرة، ترتدي ملابسها على الموضة منذ عشرين عامًا قد تبدو أكثر جمالًا لو ارتدت لباس بحر أصفر.. أو..

قررت ألا أكمل، حتى لا أتعرض لتوبيخه، فهو بالتأكيد لا يعرف شيئًا عما حدث في شم النسيم. فبينما انشغل البعض بالرقص، وحام البعض الآخر حول حمام السباحة المجاور للبحر، وأخذت ريم تشرف على الرتوش الأخيرة لطعام الغداء المناسب لهؤلاء القادمين بحثًا عن متعة على شاطىء البحر، تسللت "زينات" مع الشاب الأسمر العملاق إلى سطح الفيلا وتحت أشعة الشمس الساخنة، ووسط نسيم هب خفيفًا من ناحية البحر وراحا يشمان النسائم التي تفوح من جسديهما فقط، وبأغرب طريقة يمكن لذكر وأنثى أن يفعلاها معا. تأوهت الممثلة الشهيرة بطريقة معبقة بالفجور لدرجة أن أم حسين سمعتها وهى تقوم بتحميص الخبز، في بداية الأمر تصورت أن ثعبانًا تمكن من دخول عشة الحمام، وأخذ يفترسها على طريقته، فأسرعت إلى العشة وتأكدت أن الطيور على ما يرام، لكن صوت الممثلة وهي تشم نسيم المطرب المبتدىء راح يعلو. بدت كأنها في ماخور ترقد فيه آلاف النساء بين أحضان الرجال.

في بداية الأمر أصاب المرأة رعب، ثم لم تلبث أن فهمت ما يمكن أن يحدث فوق السطح. تساءلت: ترى هل ساءت أخلاق ريم لدرجة أن تشجع أصدقاءها للصعود إلى السطح لفعل الفحشاء؟ تسللت إلى المطبخ وحسب روايتها لذا فإنها تأكدت أن سيدتها في حالها، وأنها في صحبة ضيفها

الذي هو أنا، يعدان المائدة. وبدت الطامة في أن أحدًا لم يسمع الأصوات العالية، أو لعلهم يسمعون، يبدو أن مثل هذه الأمور لا تعنيهم كثيرًا ولأنها امرأة صالحة، ولا تترك فرضًا من فروض الله. قررت أن توقف المهزلة، وأن تترك الرجسين فوق السطح، فهذا بيت طاهر وشريف، ولم يكن سعيد بك والد "ريم" سوى رجل شريف، يعرف أن الله حق، ولا يمكن أن يرضى وهو في مقبرته، بما يحدث في الفيللا التي بناها طوبة فوق طوبة.

تسللت المسكينة إلى السلم الخشبي، ورغم مخاطر الصعود إليه فإنها فعلت، وراحت تبسمل، وتتمتم. بكل ما يحفظه قلبها من أدعية وآيات كريمة. حتى رأت ما لم تتوقع. لم يكن فوق السطح آلاف العشاق، ولا مئات ولا عشرات، لكن هناك شخصين فقط، يفعلان ما تفعله مدينة ماجنة من المدن التي حلت بها لعنات الله والمذكورة في القرآن الكريم.

ما إن نزلت وهي تصرخ، حتى تجمع الضيوف أسفل السطح. نزلت الممثلة وعشيقها الصغير، وهي تردد في قحة:

– الله يخرب بيتك.. ماذا حدث.. هل حرام أن نتسلى قليلا؟

بدا الشاب وقد تبلل من العرق كأنه خارج من البحر لتوه.. لا أحد يعرف هل هو عرق الحياء والإحساس بالخجل، أم بسبب المجهود المضني الذي بذله فوق السطح.

وسرعان ما انطلقت التعليقات الساخرة، وحوَّلت النجمة الشهيرة الموقف إلى صالحها، وببراعة أدائها، أشاعت في المكان البهجة بنكاتها المثيرة،

واستطاعت أن تجذب إعجاب الجميع من حولها، عدا ثلاثة أشخاص هم "ريم" صاحبة الدار التي أقسمت برأس أبيها أن تطردها شر طردة، وأم حسين التي لم تكف عن الارتجاف من بشاعة ما شاهدته فوق السطح، أما أنا فقد شعرت بالارتياح ونحن نتناول الطعام حين لاحظت عدم وجود الممثلة، بدت العجوز راضية عن موقف ريم، كان من الواضح أن زينات تسللت مع عشيقها الصغير إلى مكان آخر في الصحراء وعليهما أن يفعلا ما يتراءى لهما.

لو أن عم عبده يعرف ما حدث، ولو شاهد بنفسه ما شاهدته العجوز، ما وضع هذه الصورة المحتشمة فوق الحائط، ولفكر في أن يضع صورة أخرى لنفس الممثلة، تلك التي في مخيلتي عن الوضع الغريب الذي شاهدها عليه أم حسين فوق السطح في "شم النسيم" إياه.

أشرت إلى صورة محمد عبد الوهاب القديمة التي يبدو فيها وقد أطلق سوالفه مثلما يفعل بعض الشباب هذه الأيام. سألته:

– هذه.. هل هي من سوق الجمعة؟

التفت إلى الصورة، ثم رد في حزم:

- لا.. صدقني. إنها هدية من مجلة "آخر ساعة". انظر إلى أعلى الصورة.

بدت الصورة كأنها نشرت على غلاف قديم للمجلة. قرأ أفكاري وهو يردد:

- "عبد الوهاب" كان عنوان الأناقة في زمنه.. شباب اليوم يقلدونه دون قصد

سألت:

- هل كان يرتدي الشارلستون؟

- ليس الشارلستون بالمعنى المقصود. وليس الحذاء كعب الكوب الذي يجعل أمثالكم من الشباب يطرقعون كأنهم يلبسون القباقيب.. الأناقة أيام عبد الوهاب كانت أناقة.. البنطال الواسع الذي كان يرتديه هو نوع من الشارلستون.. كان أي شيء يفعله عبد الوهاب يصبح موضة يقلدها الشباب.. أنا أقصد السوالف.. كانت موضة أبناء الطبقة الراقية.. وليس كل من هب ودب.. انظر إليهم في الشوارع.. شيء يثير الضحك..

أشار إلى الطريق الذي بدأ بالليل يزحف عليه، وعلى ضوء المصابيح مر ثلاثة شباب، كانوا يتضاحكون فيما بينهم، قال بتهكم:

- انظر.. شعر أكرت.. ومن ليس معه ثمن الحلاقة يدعي أنه خنفس، ومن لا يمتلك سوى بنطاله القديم المرتق. يدعي أنه "هيبز".

ضحكت للطريقة التي نطق بها الكلمة، تملكه حماس غريب بدا في كلماته. أشار إلى قطع القماش المتناثرة في أنحاء المحل:

- تعال انظر. أصحاب كل هذه البنطالات يرتدون الشارلستون وآه من الشارلستون.. أجمل شيء أن يأتي شخص لك بقطعة قماش جاءته هدية من حيث لا يدري، ولأنه لا يعرف شيئًا، يقولك لك: أريد "شابرستون" ومرة "شارلي ستوم".. وخذ من هذا الكثير..

سكت قليلًا، قبل أن يرمي بقنابله التالية، وهو يفرد أمامه قطعة القماش البنفسجية التي عليه أن يصنع منها بنطالي قائلًا:

- بذمتك.. هل تتصور أن شخصًا لا يعرف كيف ينطق اسم الشارلستون (نطقها بلكنة كأنه يجيد اللغة الفرنسية مثل "ريم") يمكنه أن يلبس مثل هذا البنطال كما يرام..؟

ضحك في سخرية، ضرب كفًا بكف، بدا كأنه ردد مثل هذه العبارات لكل من جاءوا قبلي، خاصة الذين أرسلهم الأستاذ فيصل من تلاميذه السابقين والحاليين، والذين سيحضرون حفل زفافه الذي سيقام في كازينو سبورتنج بعد عشرة أيام. حاول أن يشرد، كأنه يتذكر سنوات بعيدة، لم يعد لها وجود إلا في مخيلته. ولى وجهه نحو صورة على الحائط، كأنه يتحدث إليها، متجاهلًا وجودي تمامًا:

- أيام زمان. كان الشخص الذي يجيء ليطلب منك تفصيلة على الموضة. ينطق الكلمة كأنه يعزف موسيقى. وهذا الشخص بالتأكيد سيرتدي ملابسه بتناسق واضح. السترة على البالطو الواسع والطربوش ورابطة العنق، وأحيانًا البابيون.. الآن الدنيا تغيرت إلى الأسوأ.. الطرابيش

راحت.. والموظف الذي يذهب إلى شغله برابطة العنق يضحكون عليه، ويقولون "طالع فيها" ومن أقام في شعره مستعمرة قمل وصئبان يتصور أنه "خنفس".. وماذا.. في الآخر يقولون "شارلستون" بذمتك.. هل تعرف ماذا يعني الشارلستون؟

إنه يختبرني لعله يحاول أن يعرف إن كنت جديرًا بأن يفصل لي بنطالًا على الموضة أم لا.. ارتبكت، ومع ذلك أجبت بتلقائية:

- طبعًا.. "شارلستون هستون"..

طوى قطعة القماش بازدراء واضح بين يديه، أحسست مجددًا كأنه كرر السؤال باعتباره مدرسًا قديمًا في مدرسة العباسية، على كل من جاءوا إليه بقطعة قماش، أو أكثر، لتفصيلها. هنا فقط فهمت سبب وجود القطع المتناثرة، من الأقمشة بلا ترتيب، لعل كل أصحابها فشلوا في الإجابة عن السؤال مثلي. قال في لهجة توبيخ واضح. توبيخ المدرس لتلميذ لم يتمكن من الإجابة عن السؤال:

- أولًا.. ليس اسمه شارلستون هستون.. اسمه شارلستون.. وطبعًا أنت تعرف أنه قام بشخصية سيدنا موسى في فيلم اسمه "الوصايا العشر"، وكان له فيلم في السينما منذ عامين اسمه "كوكب القرود".. لكن بذمتك لو كنت فكرت ما أجبت مثل هذه الإجابة.. هل شارلتون هستون كان يرتدي مثل هذه الموضة في أفلامه؟

عندما لم أتمكن من الإجابة، رد نيابة عني:

- لا، طبعًا.. هل رأيت إلى أي حد شباب اليوم جاهل.. فكر يا طالب الآداب.. عيب وأنت خريج مدرسة العباسية. يا خسارة، يا أولاد..

إنه يناورني، يعرف الإجابة، ولا يريد أن ينطق بها إلا بعد أن أقر وأعترف داخليًا أنني جاهل أصيل، ولا أستحق أن أكون طالبًا بكلية الآداب، لعله يستكثر عليّ أن أكون من تلاميذ العباسية الثانوية. نظر إليّ كأنه يستحثني أن أنطق بما يعرف. لكنه قرأ على ملامحي البلادة، والحيرة فوكَّل أمره إلى الله، وقال:

- ألا تعرف رقصة الشارلستون؟

وبينما يتكلم بمعرفة أكيدة، وغزيرة عن الرقصة التي شاعت في العالم في عام **1925**. تمنيت لو جاءت "ريم" معي كي تلقنه درسًا، أو لتصحح له أية معلومات خاطئة قد يقولها عرضًا أثناء حصته التي قررها. ليس لأنها أبرع راقصة شاهدتها في حياتي، والدليل على ذلك ما فعلته مساء شم النسيم في العام الماضي، ولكن لأنها مهتمة بقراءة تاريخ الفنون بشكل جنوني، خاصة في القرن العشرين.

بعد أن انتهى من درسه القصير، أحسست كأنه يدخلني في امتحان جديد. فقال:

- هه، يا بطل.. ما رأيك.. هل نجحت في الامتحان أم؟..

أجبت باقتناع شديد:

- رسبت بالطبع.. أنت لست خاطئًا.. بل عالًما.. ومثقفًا. وخسارة.

قاطعني حتى لا أكمل ما كنت سأقوله:

- لا.. لا تقل خسارة، أنني أعمل في المحل.. لا.. الظاهر أنك لم تستوعب الدرس جيدًا. فإذا كنت قد علَّمت أجيالًا كثيرة في مدرسة العباسية، يعملون الآن مستشارين، وضباطًا كبارًا، وبعضهم أعضاء منتدبين لمؤسسات كبرى، فإنني من هذا المكان أيضًا خرجت أجيالًا، تلبس أكثر الملابس أناقة، وعلى الموضة.

قاطعته بأدب:

- يعني سيادتك كنت تربي العقول صباحًا.. وتجعل أصحاب العقول يرتدون على الموضة مساءً..

ضحك مداعبًا وهو يردد:

– أصحاب العقول في راحة!! هاها...

عاد مرة أخرى ليتكلم بنفس شخصية الذي استقبلني قبل ساعة بأكملها:

- الآن استوعبت الدرس وسوف أكافئك على هذا.. اسمع.. متى سيكون عرس الأستاذ فيصل؟

- يوم تسعة يوليو.. أي بعد عشرة أيام.

مط شفتيه، وراح يحرك جسده الثقيل من فوق الأريكة التي جلس عليها، بدت حركته بطيئة، بما يوحي أنه لن يتمكن من تنفيذ وعده. وقال:

– حسنًا.. يوم ثمانية، الساعة السابعة مساءً يمكنك أن تأخذ البنطال..

وقفت في مكاني، أستعد لمغادرة المكان، رميت نظرة أخرى على صورة "زينات أبو اليزيد"، ثم اكتشفت أن هناك صورًا لنجوم سينما، ومشاهير في قمة أناقتهم. "أحمد سالم" بتسريحة شعره المتموج، و"جيمس دين" ببنطاله الكاوبوي وحزامه العريض فوق موتوسيكل يستعد للانطلاق به، و"إسماعيل يس" بزيه العسكري في فيلمه الشهير الذي دخل فيه الجيش..

قبل أن أطلق عليه تحية المغادرة، سألني:

– إيه.. إلى أين؟

قلت ببراءة واضحة:

- أتركك لعملك.. موعدنا يوم ثمانية. الأستاذ فيصل أبلغني أن التفصيل بجنيه.. أدفعها كما أشاء..

رأيته ينظر نحوي في دهشة كأنه لم ير شخصًا على شاكلتي من قبل، فقال وهو يتفحص ملامحي جيدًا كأنه يحاول استكشاف نواياي جيدًا، فهل أمزح، أم أتكلم جديًا. ردد:

- يبدو أن الصور أكلت عقلك.. خاصة الست "زينات". قلت ما لون المايوه...؟

ابتسمت: أصفر..

مد يده إلى الدرج، خلته سوف يخرج مسطرة خشبية كي يعاقبني على ما قلته. لكن ما إن أخرج "المقاس" الذي يقيس به حتى قد أدركت أي خطأ فادح ارتكبته، وأنني بذلك كشفت عن نفسى، بأن كل بنطالاتي التي أرتديها قبل ذلك كانت هدية من أبناء خالي "محمد". وأن هذا أول بنطال يتم تفصيله خصيصًا من أجلي.

لم يكف عن الثرثرة، وهو يلف المقاس حول بطني، يكتب بالطباشيرة فوق قطعة القماش، يلفها حول فخذي، ويكتب، ثم يقيس طولي من أسفل سرتي إلى قدمي. قال:

- ما رأيك أن يكون اتساع القدم أربعة وعشرين.. اسمع.. سوف أجعلك حديث الفرح.. لتكن خمسة وعشرين وادعو لي.

ما إن خرجت من المحل، إلى شارع سوق الميدان، ومنه إلى ميدان المنشية، حتى تراءى الناس لي كأنهم تغيروا تمامًا.. تكتل الشعر فوق

رءوسهم كثيفًا، واتسعت بنطالاتهم. وتباينت ألوان قمصانهم، وراحت كعوب أحذية الرجال تدق مثل النساء عالية، كأنهم يفخرون بأنوثتهم. حاولت أن أكتم ضحكة، وأنا أرقب شعرًا أكرت كثيفًا لصبي في الثالثة عشرة أطلق سوالفه الطويلة وتخيلته أقام مزرعته الغنية بالقمل فوق هذا الرأس. راحت الضحكة تقاوم الانفجار. كلما اقتربت منه، فجأة جاء من الناحية المقابلة شاب أكبر سنًا، حاول معاكسة فتاة ترتدي جونلة قصيرة بعبارة سمجة "أخذكم الله يا جمل". التفتت إليه الفتاة، ورمته بنظرة اشمئزاز وقالت: "يا مقمل" بدا كأنه يفكر في أن يسب أباها وأسرتها كلها، مسح شعره الكثيف بيده. لم أتمالك نفسي، فضحكت بصوت سمعه ميدان المنشية بكل الموجودين فيه وأنا أقول:

- حاسب.. حاسب.. المزرعة تفقد سكانها..

اليوم الخامس

أخيرًا سوف أصبح واحدًا من هؤلاء "الحبيبة" الذين يجلسون في كازينو الشجرة.. كم حسدناهم نحن رواد حديقة الشلالات، حين كنا نراهم جالسين على الجانب الآخر من البحيرة المتراشقة بالأوز الأبيض والبط، تعوم حول العشاق. فنحس كأن صياح الطيور ينطلق فقط من أجلهم.

ستنتظرني ماجدة هناك بعد أن رفضت أن نلتقي عند "الدليل" بمحطة الرمل. باعتباره الملتقى الرسمي لأغلب المتواعدين في كل الأوقات. قلت لها بعد أن احترنا في اختيار المكان المناسب:

- كازينو "الشجرة".

سكتت وقالت: يقال إنه مكان مشبوه.. لماذا هو بالذات؟

وصفت لها المكان عندما رأيته أول مرة منذ عشر سنوات، عندما جئت وأنا في الحادية عشرة لأرى الشلال الذي تتدفق منه المياه ودار بي "حسن" أخي الأكبر حول السور الحديدي وراح يشير إلى الطيور كثيرة العدد السابحة فوق مياه البحيرة، وتلك التي تصدح فوق الأشجار. قلت لها إن "الحبيبة" الحقيقيين يأتون إلى هناك. وأنني كم تمنيت حين أصير كبيرًا

ألتقي في هذا المكان مع أول حبيبة لي.. ابتسمت بعينيها الواسعتين وقالت بدلال:

– بذمتك.. هل أنا أول واحدة؟

بجدية قلت: وأيضًا الأخيرة.

ساعتها ردت بسرعة: إذن أنا موافقة، انتظرني هناك، يوم الثلاثاء، الخامسة بعد الظهر.

حددت أن يكون الثلاثاء موعدنا، أما مسألة الساعة الخامسة فهي التي اختارتها حتى تستطيع العودة مبكرًا إلى منزلها. حدث ذلك صباح الجمعة في مكتبة البلدية ونحن في غرفة المطالعة الداخلية. لم أشأ أن أخبرها أنني أخَّرت الموعد إلى الثلاثاء، لأنني سمعت أن النتيجة سوف تظهر صباح ذلك اليوم. وأنني أريد أن أحمل لها معي نبأ حصولي على ليسانس الآداب الذي سيكون مفتاحًا نحو العش الجميل الذي نحلم به.

فور أن حددنا الموعد تزاحمت كل الأشياء أمامي. فما إن عدت إلى المنزل حتى قالت أمي:

- سيعود أمين اليوم من ليبيا. انزل لانتظاره في موقف السيارات.

أصبح عليّ أن أسرع إلى المنشية قريبًا من سوق ليبيا لأنتظر العربات الكثيرة القادمة عبر الطريق البري من السلوم حاملة فوقها الأطنان

من البضائع التي جلبها أبناء الإسكندرية من رحيلهم للعمل هناك. رأيت التوأمين "مها" و"سها" واقفتين تنتظران وصول أبيهما. أقبلت "مها" نحوي وقالت:

– كيف حالك يا خالي؟ لم تصل السيارة بعد.

وقفنا ننتظر "أمين" الذي سافر إلى طبرق منذ عام أسوة بالكثير من أهل الحي الذين انفتحت أمامهم حدود ليبيا. ذهبوا إلى هناك تحملهم سيارات البيجو ثم تعود بهم بعد عدة أشهر، وقد سدت الأوراق المالية جيوبهم حاملية كل ما نتوق إليه من مراوح ومسجلات وبوتاجازات وملابس على أحدث موضة. ها هو زوج أختي قد انضم إلى قافلة المسافرين، وسوف يعود بعد قليل وفي جعبته مصباح علاء الدين الجديد، الجنيه الإسترليني، الذي يتحدثون عنه في كل مكان.

سألنا الرجل عن سبب تأخير السيارات، فأقسم أن البيجو لا تتأخر أبدًا في الوصول، وأن السيارات تقطع المسافة بين بنغازي والإسكندرية في ست عشرة ساعة بالتمام والكمال. أخبرته أن زوج أختي قادم من طبرق فأشاح بيده إلى أعلى ليبعث الاطمئنان في قلوبنا:

- طبرق. إنها إلى جوارنا..

بدا وهو يتحدث كأنه يؤكد أن المدينة الليبية أقرب لنا من حي المكس، وأنه لا قلق بالمرة على أي مسافر، فرغم أن الطريق ضيق لكن البيجو وسائقينا هم فرسان الصحراء الغربية.

طال الانتظار ولكن عندما عدت إلى البيت في الثامنة مساءً لم أجد أمي هناك، أخبرتني أختي أنها ذهبت لتحية زوج ابنتها الذي جاء منذ ثلاث ساعات. أوصلته السيارة مباشرة تحت عتبة البيت. قالت أختي:

- أكيد.. أتى معه بأحمال كثيرة.. فلا أحد توصله البيجو إلى المنزل إلا إذا كانت لديه حمولة زائدة.

- ألن تذهب إليه؟

كنا قد عدنا نحن الثلاثة من المنشية، بعد أن أصابنا اليأس من وصول والد التوأمين "مها" و"سها" وتركتهما قريبًا من منزلهما كي أسرع إلى البيت لأتابع الحفل الذي تقيمه جمعية أسر الشهداء وسيذاع على الهواء الذي سوف تغني فيه "ريم" أغنيتها الأولى أمام الميكرفون.

انتظرنا هذا اليوم سنوات وأشهر طويلة خاصة عقب تخرجها. قررت تركيز نشاطها في القاهرة، قالت إنها تعاني كثيرًا من أجل العثور على كلمات مناسبة جديدة مجنونة لم يشدُ بها أحد من قبل. لم تعجبها قصائدي كالعادة. قالت:

- ينقصك الجنون.. لكنك شاعرة بالفطرة.

لم تنجح في أن تعلمني كيف يكون المرء مجنونًا. لكنها أبلغتني أن الجنون هو أعلى درجات الشجاعة. فما يفعله من نتصورهم مجانين لا يمكن لامرىء يعتقد نفسه عاقلًا أن يفعله، هل يمكنك أن تغني في الشارع مثل الأب الذي يركب دراجة ينطلق بها وسط السيارات في شارعي صفية

زغلول، وسعد زغلول، إنه مهووس بالأغنيات الهندية خاصة فيلم "سنجام". أصبح علامة من علامات المدينة يمرق إلى جوارك بدراجته ولا تملك سوى أن تنظر إليه بدهشة وإعجاب. يتصوره البعض مجنونًا. لكن كل منهم يتمنى لو يفعل مثله، فمن من هؤلاء الذين يستمعون إليه لا يحبون الأغنيات الهندية؟

فكرت أن أركب دراجة مثله، وأن أنطلق في الشوارع ألقي قصائدي على الناس وأن أصبح أحد مشاهير المدينة، لكنني للأسف لم أستطع، ليس لأنني لا أحفظ أشعاري ولا لأنني خائف أن يمسكني شرطي، فحتى الآن لم يقم أحد بالقبض على راج كابور المدينة، لكن ببساطة لأنني لا أجيد ركوب الدراجة، ولا أمتلك واحدة منها.

مدت لي بكلمات الأغنية التي اختارتها وقالت:

– ما رأيك؟

يومها نظرت إلى الوريقة بدهشة؛ فكلماتها غريبة وعنوانها لم نسمعه في أغنية "بنادق بالشارلستون". إنها حول جندي مؤهلات عليا تخرج في الجامعة، أرسلوه إلى الجبهة، قصوا له شعره وسهر الليل ينتظر الأمر بإطلاق مدفعه. لكن المدفع صدئ الفوهة. لا يمكن أن ينطلق إلا إذا قام بإزالة الصدأ القديم.

سألتها: ما علاقة عنوان الأغنية بكلماتها؟

راحت تشرح أن شباب اليوم منشغلون بالموضات الجديدة، وأنهم سرعان ما جروا وراء التعليقات الشكلية التي جاءت من الغرب، ولذا اصطدموا عندما تم تجنيدهم، فحلقوا رءوسهم وأزالوا السوالف وحملوا البنادق. إنها بنادق الشارلستون. لم أفهم شيئًا مما قالته، لكنني انتظرت أن أسمعها تغني في حفل أسر الشهداء.. إنها أغنيتها الأولى على الملأ، التي ضمت ثلاث مواهب جديدة بالإضافة إلى نجاح سلام ونجاة وعبد العزيز محمود وعفاف راضي.. وفي الثانية عشر إلا ثلثًا نطق المذيع اسمها وراح يقدمها:

- إنه صوت البحر.. هادر كالأمواج متدفق كالنسيم يغني أمام كل هذه الجموع. لجيل جديد يؤمن أن الحياة تستمر.. مطربتنا الليلة هي واحدة من أصوات المستقبل.. ريم العدوي.

عزفت الموسيقى، وجدت نفسي في غرفتي الصغيرة أسترجع وقائع أول مرة سمعتها تغني في حفل الكلية التي تخرجت فيها في العام الماضي والتي من المتوقع أن أتخرج فيها خلال يومين. جاء صوتها مجددًا يجذبك إليه بجنونه وتدفقه، واثقة بنفسها، وحتى أراها بعيني ترتدي ثوبًا بسيطًا عبر الراديو الصغير الذي أسمعها منه. تمنيت لو كنت معها كي أصفق لها. ثم قررت أن أفعل ذلك في غرفتي فحتمًا سوف تسمعني.. ورحت أفعل.

تغني من أجل الشباب والوطن. لكن هل يفهم المستمعون المعاني الخفية لكلمات الأغنية التي قامت بتركيبها وتأليفها؟ إنهم يريدون عبارات

سهلة نسمعها اليوم في أغنيات "عبد الحليم حافظ" عن الحب والخوف من الطريق والهوى، تريد أن تنقل الناس بأغنيتها إلى الجبهة حيث يتعرض الأبناء مثلما سيحدث لي حتمًا، لاستطلاعات الطيران الإسرائيلي وللغارات المفاجئة ولاستنزاف الأجساد والنفوس. تود أن تكون أغنيتها واحدة من القنابل التي سقطت فوق مدرسة بحر البقر تنبه الناس أنهم في غيبوبة، لكن ترى هل وصلت معانيها إلى الآخرين؟ سوف أسأل في ذلك غدًا.

يبدو أن أحدًا لم يسمع أغنيتها ممن أعرفهم، عدا أمين زوج أختي سألت. رد أحدهم:

- نحن لا ننتظر إلا أم كلثوم.

ردد آخر إنه لم يعد يستمع إلى الإذاعة، وأن التليفزيون يشغل وقته في الفترة الأخيرة، هز الكثيرون رءوسهم مؤكدين أنهم لم يسمعوا الحفل من أساسه. أما "أمين" فقد بادرني قبل تحيته المألوفة:

– صاحبتك كانت رائعة..

لمعت عيناي، وانطلق السؤال: هل سمعتها..؟

رد في حماس واضح: طبعًا كلنا سمعناها. اسأل أختك و..

ثم راح يشير إلى عائلته الصغيرة، زوجته وابنتيه "مها" و"سها".

قالت أختي بشيء من الحماس والمجاملة:

– صوتها يجنن..

رددت التوأمان في اللحظة نفسها: حلوة.. يا خالي..

سألتني سها: هل هي حلوة مثل صوتها؟

ردت أمي التي كانت جالسة فوق الأرض في شقة ابنتها: وهل يعرف ابني واحدة غير حلوة..

قبل أن نضحك. تنبهت أنني لم أفعل شيئًا مهمًا، قلت موجهًا كلامي لأمين: أنسيتموني أن أقول حمدًا لله على السلامة لأبيكم.

أقبل الرجل عليّ وراح يعانقني وهو يقول:

- ونحن نسينا أن نبارك لك على الليسانس.

أطلق تنهيدات رجل عائد من السفر، شد على جسمي بقوة عبرت عن مدى فرحته بنجاحي الذي ذاع اليوم بين أفراد الأسرة، جذبته نحوي بشدة لأعوض افتقادي له طيلة هذه الأشهر. رأيت أختي من ورائه، تمسح دمعتي الفرح.. هي بالتأكيد فرحة مركبة لعودة زوجها ونجاح أخيها، وذلك العناق حيث راح كل منا يقرع على ظهر الآخر. بينما حاولت أمي أن تزغرد لكن شيخوختها لم تساعدها.

قال "أمين" وهو يشير إلى ابنتيه:

– أتمنى أن أراكما مثل خالكما.. ليسانس آداب.. تقدير جيد..

قلت محتجًا: لا.. امتياز.. لن تنال كل من "سها" و"مها" أقل من امتياز.

بشيء من الحسرة في لكنته ردد:

– فليكن "مقبولًا" المهم أن تدخلا الجامعة.

يبدو أنه صدم في المجموع الضعيف الذي تواءمتا أيضًا فيه **53** في المائة في الثانوية، لذا قرر عدم العودة إلى طبرق إلا بعد أن تعيدا السنة وتحققا مجموعًا أفضل. أحسست بالأسى على وجهه..

تذكرت ماجدة التي نالت دبلوم التجارة في العام الماضي، وتعمل في مكتب بريد كرموز التي اختلفت معها منذ عدة أسابيع، انتهى ما بيننا بالتصالح والتردد المتكرر على مكتبها، وسوف ينتهي بعد قليل باللقاء الأول في كازينو "الشجرة". تشعر بالفخر لأنها تعرفت على طالب في نهائي الليسانس وتريد أن تكمل دراستها. قلت لأمين:

– هل سيصلح المجموع؟

رد "أمين" وهو يسحبني لأجلس إلى جواره فوق الأريكة التي تجلس أمي قريبة منها قائلًا:

- طيلة عمري أقول ليت البنات يطلعن مثل خالهن. مجتهد.. يذاكر مرة واحدة.. ولا يعتمد على المذكرات.. البنتان كانتا متفوقتين قبل أن أسافر إلى ليبيا. لكن غيابي أثر عليهما..

دروس خصوصية دفعت.. يا خسارة.. ليس أمامها سوى معهد متوسط

رددت أمي بسذاجتها المعهودة:

– الخيرة فيما اختاره الله.

تعرف ماذا يعني تقدير جيد، لكنها عرفت مثلي بالمصادفة أنني نجحت وأن النتيجة أعلنت قبل موعدها وانطلقت إلى الكلية لأتأكد ما سمعت. لم أنتبه وأنا أغادر المبنى إلى الكافتيريا التي جمعتنا نحن معًا أبناء قسم اللغة الفرنسية بعد نهاية الامتحانات في حفل وداع وأنستني الفرحة أن أذهب إلى مسرح الكلية لعلي أتنسم بقايا ريم التي كانت تملأه قبل عام في حفل وداع بصوتها الجميل لتعلن بذلك نهاية زمن لن يعود أبدًا.

صاح "أمين" موجهًا كلامه إلى زوجته:

– أين العدة والذي منه؟

غابت المرأة قليلًا قبل أن تعود حاملة مسجلًا كبير الحجم بدا ثقيلًا على يديها، بينما جلس "أمين" في جلبابه الوردي كأنه سلطان يعد من أجل عودته حفل مهيب. انحنت أختي كي تقوم بتوصيل السلك بمنبع الكهرباء، تحسس زوجها الجهاز بيده كأنه يربت على قط أليف، قال:

– أحدث تسجيل في ليبيا.. ناشيونال.. ولا كل الأجهزة.. الناس هناك يشترونه كي يسجلوا عليه رسائلهم ويبعثون بها إلى أسرهم بدلا من الخطابات.. العلم مفيد والدنيا تتطور.

هنا تكلمت أختي لأول مرة:

– الحاج "أمين" يقول إنك لو وضعت الشريط هنا وضغطت بإصبعك هنا وهنا يمكنك أن تسجل صوتك.

تدخلت واحدة من التوأمين اللتين كثيرًا ما اختلف في التمييز بينهما، وقالت:

– ما رأيك يا بابا أن نسجل شريطًا لجدتي ولخالي معنا؟

عرفت من صوتها أنها مها. أكملت أختها:

– فكرة.. خالي نجح وبابا رجع لنا بالسلامة. كلنا هنا.. ما رأيك يا ماما؟

استحسن "أمين" الفكرة، لكنه كان يعد لي مفاجأة أخرى قبل أن نبدأ التسجيل، بل مفاجأتين. أخرج لي شريط تسجيل وهو يقول:

– صوتها عذب.. لكن كلمات الأغنية غريبة.

يحب دائمًا أن يحدثني عن "ريم" حتى قبل سفره فهو يشعر بفخر خاص أن شقيق زوجته يعرف هذه الفتاة ويمني نفسه دائمًا أن يكون على

صلة نسب بأسرتها لو تم النصيب بيننا، لم يحاول أن يفهم قط أن ما يربطنا يختلف عن العلاقات المألوفة التي نعرفها من حولنا، يفكر بنفس طريقة الأستاذ فيصل في بداية علاقتنا. لكن هذا الأخير لم يلبث أن فهم، فكابرها في أعماقه. أما "أمين" فكل ما يحلم به أن يدخل علينا في بيت الزوجية حاملًا أكياس الفاكهة ويبارك بمناسبة المولود الأول.

أمسكت الشريط، لم أود أن أتساءل كيف يمكنني أن أسمعه فلست العائد من ليبيا ولا أعرف الضبط متى سأمتلك مثل هذا المسجل. بادرني بطريقته المألوفة في الكلام ملوحًا بيده اليسرى في الهواء أكثر من مرة علامة على تأكيد ما يقوله.

– أي وقت تريد أن تسمعه.. المسجل تحت أمرك..

وقبل أن أشكره أشار لامرأته أن تسلم لي كيسي الذي أحضره لي وراح يردد في مودة واضحة:

– شيء مما قسمه الله. تستاهل أكثر من هذا..

تمتمت: لماذا كل هذا يا حاج؟

ردد بصوته الأجش:

– هدية بسيطة، لدينا الآن حامل الليسانس.

تحسست الكيس بين أصابعي كأنني أحاول معرفة ما داخله واكتشفت أن به أقمشة قال:

- قمصان آخر موضة "هيبس" مشجر وكاروه.. وبنطلون شارلستون ثلاثين. الموضة هذه السنة هى الكاروه..

أردت أن أشكره، أو أن أقول إنه لا داعي لكل هذا معا، لكنه ردد:

– يجب أن يرتدي شاب مثلك لديه ليسانس على أحدث موضة.

عرفت في اليوم التالي قبل أن أرتدي من هذه الملابس للذهاب لمقابلة "ماجدة" أن "أمين" ذهب عقب سماعه نبأ نجاحي إلى سوق ليبيا واشترى لي المزيد من الهدايا، أتى بقميص نايلون طويل الأكمام بخطوط بنية طولية.. أصر على شراء قميص آخر مربعاته كبيرة تغلب عليه الألوان البنية والحمراء وبنطالًا بنفسجي اللون على آخر تقليعة، كما يرتدي الشباب الآن في كل أنحاء العالم.

ما إن وضع "أمين" الشريط داخل المسجل حتى بدأت وقائع الجلسة العائلية. جلس الرجل إلى جوار الجهاز وراح يردد:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. حبيب الله وصفيه وخليله اللهم أدم علينا نعمتك الذرية الصالحة والصحة الغالية واجمعنا دائمًا على محبة ولا تفرق شملنا.

رددت أمي وأختي معًا:

- ربنا يسمع منك.

أكمل دون أن يتوقف:

- الأحد السابع من سبتمبر عام اثنين وسبعين. نجلس في حضرة عائلية تضم الست الفاضلة حماتي "أم حسن" أبقاها الله لنا وابنها الشاعر والفنان شقيق حرمنا المصون جعلها لنا ظلًا ونورًا.. وابنتي مها وسها. طبعًا كان بودنا أن يكون معنا حسن لكنه مشغول كثيرًا.. كما نتمنى أن يكون معنا كل أفراد الأسرة..

أشار إلى ابنته مها أن تتكلم:

- هيا يا مها.. مارسي مواهبك.. ألست أنت مذيعة هذه الأمسية؟

كنا نتكلم أمام جهاز جديد حساس بلا ميكرفون بمجرد أن تتكلم أمامه يلتقط صوتك، أمالت برأسها نحو فتحة المسجل وتخيلت نفسها تمسك ميكرفونًا وقالت:

- سيداتي، سادتي مساء الخير. يسعد إذاعة الحاج أمين الشرقاوي أن تستضيفكم لمدة ساعة.

بدت كأنها تقمصت الحالة، حاولت أن تقلد "سناء منصور"، ضحكت أمها وقهقه أبوها وابتسمت جدتها وراقب خالها في إعجاب.

أكملت:

- تعالوا معنا إلى المرح والسعادة.. شعارنا هو "مافيناش من الزعل".. إذا كنت متجهمًا افرج أساريرك. وإذا لم يكن لديك مفك تفك به عقدك بالمفكات هذه الأيام رخيصة.. الواحد بربع جنيه.. يا بلاش.

أكمل أبوها القهقهة وهو يردد ضاربًا كفًا بكف:

– البنت صدقت الدور.. جزاك الله..

زاد اندماجها في تقليد مذيعي إذاعة الشرق الأوسط "كمال جامع" و"ليلى معروف" و"حياة حسن" و"مشيرة نجيب". كل في برنامجه أو في أسلوبه المميز في تقديم برنامجه، التفتت إلى جدهما وقالت:

- طبعًا أحسن شيء في سهرتنا الليلة هي الست الحلوة التي نحبها جميعًا وتنير أي مكان تذهب إليه جدتي "أم حسن".

توقعنا أن تكون تلك هي البداية باعتبار أن هناك ارتباطًا شديدًا بين التوأمين وبين جدهما. سألت:

- أخبرينا يا جدة.. بماذا تشعرين اليوم. وقد حصل ابنك على الليسانس وعاد زوج ابنتك إلى قواعده سالمًا؟

لفت أمي طرحتها السوداء فوق رأسها وبدأت تتكلم كأنها تتوجه نحو القبلة وتصلي:

- طبعًا إن قلبي داعي لهم جميعًا إن ربنا ينجيهم ويسعدهم ويفتح لهم الطريق، ولا يوجد أصدق من دعوة أم تحب أولادها وتتمنى أن يكونوا جميعًا في أحسن حال.. فقط أريد أن أموت بعد أن أوصلهم جميعًا إلى بيوت أزواجهم وزوجاتهم مثلما حدث مع أمك. أشكر سي "أمين" ربنا يبارك لنا فيه وفي بنتيه ويرزقهما بأولاد الحلال.

قاطعتها "سها": وماذا بعد يا جدة؟

بدت كأنها تتصنع أن تتدخل في الحديث، أكملت الجدة:

- ويرزقكم جميعًا بأولاد الحلال، ويفتحها عليكم بالرزق والسعادة.

سرعان ما وجهت الحديث إلى "سها":

– ما رأيك يا خالي في كلام ست الكل.. مثلًا.. ما رأيك في بنت الحلال؟

رد أبوها نيابة عني كأنه يعرف الأمر جيدًا:

- موجودة.. ربنا يتمم بخير..

وجدتها فرصة لأضع بعض النقاط فوق الحروف:

-        ربما أن بنت الحلال موجودة. لكنها ليست "ريم". هي ليست أكثر من صديقة. إن لم تزد على ذلك قليلًا لتعرفوا جميعًا أن هناك عروسًا أخرى.. ربنا يسهل..

نظر لي الرجل بدهشة، لكنها لم تكن عميقة فلعله يتخيل أن تلك الأخرى لن تختلف كثيرًا عن ريم. قلت مكملًا الحديث حتى يخرج الشريط متكاملًا كسهرة عائلية:

-        لا تسأليني عن المستقبل.. أود أن أصبح شاعرًا مثل "حافظ إبراهيم" و"أحمد شوقي" و"إبراهيم ناجي"، أتمنى أن يطول العمر بـــ "أم كلثوم" كي تغني لي إحدى قصائدي.. لا أريد أكثر من هذا..

رددت أمي وهي تهز رأسها كشيخ يتلو آيات القرآن الكريم:

-        قادر.. ولا شيء يتعسر عليه.. إن شاء الله "أم كلثوم" و"عبد الوهاب" و"عبد الحليم" و"نجاة". وكل الناس يسمعوا كلامك.

وددت أن أغلق عيني من الامتنان وأنا أقوم لأقبلها، تأكدت أن ساعي البريد سيحمل لي بعد ساعات خطابًا كتبه واحد من الذين رددت أسماءهم يطلب مني قصيدة ليغنيها.

الآن جاء دور زوج أختي الذي قال:

-        بصراحة الكلام عندي لا نهاية له، أود أن أتكلم عن الغربة.. الغربة موحشة.. الذين يروننا قادمين بالبيجو ومعنا الحقائب

والهدايا لا يعرفون أننا دفعنا الكثير من الغربة.. الوحدة موحشة لرجل متزوج بسيدة فاضلة وله مثل هاتين القمرين، ثمن الغربة قاس، ونحن المصريون مهانون في بلادنا وخارجها، هنا سعرنا رخيص لذا تصور أننا لو أخذنا عشرات الأضعاف لرواتبنا فإن هذا حل للمشكلة.. لا.. أنا أعرف أشخاصًا يودون العودة الليلة قبل صباح الغد لكنهم مجبرون. تجبرهم الأسعار المرتفعة والحياة القاسية. ويتحملون المتاعب من أجل أن تدخل سيارة بيجو لأول مرة حاراقم الضيقة.

تنهد قليلًا كأنه لم يسكب سوى نقطة من برميل الكلمات:

- ولا الحارات. وما يحدث في الحارات. آه لو رأى أحد ماذا يحدث لعشرات العرائس اللائي سافرن هناك. تتحول الفتاة إلى خادمة في منزل زوجها وأسرته. أغلبهم متزوجون. عندما يصيبه الملل يحضر الرجل إلى هنا كي يشتري لنفسه عروسًا بمبلغ هو كبير بالنسبة لأهلنا هنا، لكنه لا يساوي مبيتًا في فندق في أي مكان. ومن السهل على العروس الصغيرة التي لا خبرة لها بأي شيء أن تتحول إلى خادمة درجة عاشرة. خادمة باسم زوجة.. ياه.. ماذا أقول.. وماذا أحكي؟

بدا كأنه يود أن يتكلم كثيرًا، لكن ابنته قاطعته:

- حمدًا لله على سلامتك يا بابا.. والنبي ولأجل خاطرنا.. لا تسافر ثانية..

تنهد من جديد كأنه في مأتم ونظر حوله، إلينا، كأنه لا حول ولا قوة قائلًا:

- طبعًا.. لن أسافر.. لكن ما باليد حيلة.. أنا أود لكما أحسن تعليم وأحسن العرسان لا تنسوا أن الخير هناك كثير.. سنة واحدة لا تكفي.. سأسافر سنة أخرى مرة واحدة لا أكثر.

تساءلت "سها":

- أي أنك سوف تسافر؟

خبط كفه فوق الأرض وكاد أن يسقط المسجل قائلًا:

- لعلكم تعرفون المثل الذي يتحدث عن المر والأكثر منه مرارة.

تخيلت نفسي أركب، بعد فترة لا أعرف مداها بالضبط، واحدة من سيارات البيجو تنطلق بي إلى مرسى مطروح وسيدي براني وتعبر بي حدود السلوم وأنطلق إلى طبرق وبنغازي لأعود حاملًا حقيبة مليئة بالذهب أطبع بها على نفقتي أول ديوان لي.

عندما تكلمت أختي حاولت أن تتشبه بأمها فراحت تدعو لبيتها ولإخوتها ولأمها لكنها بدت كأنها لم تحترف صياغة الدعوات جيدًا مثل "أم حسن". لم تطل كثيرًا في الحديث. وأنهت حديثها وهي تردد: "يارب" أكثر

من مرة لتعوض ما لم تقله لتزيد من تأثيرها علينا.. ساعدتها أمها في إطلاق بعض الأدعية.

انتهت وقائع الشريط في الثانية عشرة ليلًا، قلبناه أكثر من مرة وأوقفته مها مرارًا قبل أن تكمل الحديث، بدت متقنة لعملها لكنها لم تنجح في التعبير عن نفسها أمام أبيها. اعتذرت عن مجموعها الصغير الذي حصلت عليه ووعدت أباها أن تعوضه في السنة القادمة عندما تعيد الثانوية "منازل" مع أختها التي كررت نفس كلام "مها" وعللت سبب هذا المجموع الصغير بأنها فسرت منطوق بعض الأسئلة خطأ واتهمت المصححين بأنهم لم يعطوها ما تستحق من درجات.

في الواحدة مساءً أخرجت القميصين والبنطلون الشارلستون من الحقيبة الورقية ورحت أنظر إليهما وأنا جالس أمام المرآة القديمة، شعرت بنشوة، هذه الأشياء جاءت في وقتها من أجل أن أبدو أنيقًا وهيبيًا أمام ماجدة في موعدنا المضروب عند كازينو الشجرة. إنها على أحدث موضة القميص من النايلون المزركش الألوان، وجذاب للعين. رحت أقيسه أمام المرآة وتخيلت نفسي واقفًا أمام "ماجدة" تنظر إلي في إعجاب، فالشعر طويل. إنه أطول مما كان عليه يوم أن أخرجني الأستاذ فيصل من الطابور. أطلق فيصل نفسه العنان لشعره متبعًا الموضة بعد أن تزوج، وطالت سوالفه ويرتدي الحذاء ذا الكعب الكوب. ترى هل لو دارت عجلة الزمن بنا ووقفت في نفس الصف، فهل يمكنه إخراجي بتهمة أنني أمشط شعري كما يفعل الخنافس؟ أغلب الظن أنه سيفعل ذلك، لكن الزمن تغير، فقد اختفى

فريق الخنافس بعد أن زعم أحدهم أنهم الآن أكثر شهرة من السيد المسيح. أما "ألفيس بريسلي" فقد بدا منتفخًا غريب الهيئة والملابس في فيلمه الأخير الذي يحمل اسمه ويصور حياته الشخصية.

الآن. ليس هناك شخص مشهور يمكن أن نتقلد بما يفعل. بل هناك ظواهر عامة فالناس في أنحاء العالم ترتدي ملابسها على السجية والكثيرون يحسون أنهم يتحررون من القيود التي سادت سنوات في الملابس. رمى الناس بالطرابيش أرضًا منذ عشرين عامًا، واليوم يلقون بربطات الأعناق والفازلين ويفضلون الشارلستون والأقمصة المزركشة والأحذية العالية الكعوب. حتى رابطة العنق فقدت اتزانها ووقارها لدى أصحابها. فقد أصبحت ذات ألوان غريبة إما صفراء فاقعة أو بنفسجية، أما السترات السادة اللون فقد حل محلها نوع آخر مليء بالمربعات والياقة العريضة وتشكلت الأقمصة والبنطالات في مليون طراز وطراز.

ها هي لحظة اللقاء اقتربت وأصبح كازينو الشجرة على بعد أمتار قليلة لا أكثر، سوف أغدو أحد العشاق الذين يرتادونه، أتحدث إلى فتاتي وهي جالسة أمامي على مقعد من البامبو ويأتي الجرسون فيقدم لنا مشروبين دبرت ثمنها من "أم حسن" كهدية بمناسبة حصولي على الليسانس.

طيلة المسافة بين منزلي الذي خرجت منه وحديقة الشلالات، لم أكف عن النظر إلى مرايا المحلات والبيوت ذات الأبواب الزجاجية، رأيت ملابسي الجديدة عدة مرات وتأكدت أنني في أحسن حالاتي كشاب أنيق، على أحدث موضة.

إنها هناك، واقفة عند محطة الأتوبيس التي تقع أمام الشلالات، عجلت الخطى نحوها:

- هل تأخرت عليك؟

قالت بكبرياء وهي تضع أناملها بين راحتي يدي:

- جئت مبكرة. هيا بنا..

سارت إلى جواري، وأنا أتطلع إلى كازينو الشجرة الذي راح يقترب منا وأنا أتخيله إحدى القلاع البريطانية التي نراها في أفلام الفروسية، تأهبنا لغزوها والدخول إليها والسطو عليها ولو لبضع ساعات، لم تنتبه إلى القميص الجديد المزركش والبنطلون الشارلستون الذي يبلغ اتساع فتحته السفلى ثلاثين سنتيمترًا، قلت لها:

- أنت اليوم جميلة.. أجمل من الموظفة التي تجلس وراء قمطر مكتب البريد..

رفعت إليّ عينين بهما الكثير من المعاني:

- وأنت، ماذا وراء هذه الأناقة؟

ابتسمت وقلت: على الموضة..

عاجلتني:

- لكنك في حاجة إلى حذاء جديد.

تذكرت ما قالته "ريم" يومًا إن النساء دائما يحكمن على أناقة أي رجل من حذائه، أدركت أن هذه الملابس لا معنى لها بلا حذاء عالي الكعب فقلت:

- كنت على عجلة.. في المرة القادمة.

لم يهمني النظر إلى حذائها وأنا أحاول أن أنتشي بمشاعري وأنا أغزو قلعة الشجرة التي تناثر فيها العشاق على مقاعد في أماكن متفرقة. رحت أتصرف كأنني أعرف المكان من زمن طويل، أشرت إلى مائدة تطل مباشرة على البركة الصناعية، قالت كأنها تعرف المكان جيدًا:

- لا.. هنا.. قد يرانا أحد على الجانب الآخر..

أشارت إلى مكان على اليمين قائلة:

- هنا أفضل حتى لا يرانا أحد..

وددت أن أسألها سؤالًا أثار حيرتي فجأة، لكنني ركزت عيني على الجونلة القصيرة التي ترتديها، فانكشف جزء لا بأس به من وركيها قبل أن تواريهما وهي تجلس، خيل إليّ أنني قد أرى جزءًا من هضاب صدرها فأجفلت عيني قبل أن أقول:

- على فكرة.. كم أحسد نفسي لأنني معك.

فجأة تنبهت إلى حركة غير عادية عند الركن الآخر. سمعت فتاة تهتف في خوف: "خالي.. خالي"، أحسست أن هناك شيئًا غير مألوف..

أزحت رأسي لأرى واحدة من بنات أختي تغادر المائدة التي تقع أمامنا مباشرة وتهرول خارجة من الكازينو دون أن تلتفت وراءها. بينما وقف الشاب الذي يجلس معها في حيرة، ينظر نحوي. ظللت بعض الوقت في تيه ملحوظ، لا أعرف ماذا يدور بالضبط حتى تنبهت إلى نفسي. ورحت أستجمع خيوط ما حدث.

اليوم السادس

أشار إلى بداية المعسكر، وصاح بصوته الأجش:

– لا تقلق على كرامتك. إذا طلب منك أحد أن تتركها عند البوابة.

طالما سمعنا مثل هذه العبارة يرددها الجاويشية، والعرفاء، منذ أن قررت أن أقص شعري في صالون "مهدي" بشارع يوسف الحكيم. أيضًا حسب تعليمات الأستاذ فيصل بأن أتخلص من كل الركام الذي يعلو رأسي قبل أن أسلم نفسي إلى القسم، حسبما جاء في طلب الاستدعاء الذي سلَّمه شيخ الحارة لأمي في الأسبوع الأول من أكتوبر.

قرأ الأستاذ فيصل الوريقة، وهو يجلس على مقعده المعتاد أمام محل صديقه "الحاج هاشم"، وقال:

- اجلس. لماذا تقف مكانك؟

حاولت أن أخفي قلقي وأنا أقول:

- صياغة غريبة، كأنني مجرم عليه أن يسلم نفسه للعدالة.

طوى الوريقة، وأعطاها بلا مبالاة لي قائلًا:

-         لا تنس أن عقلية الجيش تتغير، هذه عقلية قديمة، الآن المؤهلات العليا موجودة في كل الأسلحة، والجيش يتطور. وسوف تختلف أساليب الاستدعاء بعد فترة.

بعد قليل، وبينما أشرب الشاي الذي طلبه لي، نظر إلى رأسي قائلًا:

– هل ستسلم نفسك.. وعلى رأسك هذه الخوذة؟

ضحك مرتين.. المرة الأولى وهو ينطق كلمة "ستسلم"، ثم عندما ترنم بـــ "الخوذة"، وهو يشير إلى الكتلة السوداء التي تعلو رأسي. بالتأكيد فإن الجيش لا يعترف بالموضة، وهو لا يعجبه الحال المائل لشباب هذه الأيام الذين يطلقون شعورهم كالبنات، ويطيلون سوالفهم إلى أسفل ذقونهم، ويرتدون الأحذية ذات الكعوب العالية يطرقعون بها فوق الطرق، كالنساء. أجبت:

– أريد أن أحتفظ بشعري لأطول وقت ممكن.

قال إنه من الافضل أن أقوم بقص شعري وسوالفي طواعية، قبل أن "أسلم نفسي" إلى منطقة تجنيد الحضرة بدلًا من أن يقوم حلاق الوحدة بجز هذه الكنوز الثمينة بنفسه وعلى الزيرو. اقترح عليّ أن أتوجه لتوي إلى عم مهدي فهو يعرف كيف يتعامل مع أمثالي..

عندما رميت برأسي فوق مسند مقعد الحلاق، تعمدت ألا أنظر إلى المرآة، وتركت الرجل ينتزع عني تاجي الذي أتباهى به أمام فتيات الحارة،

وعلى طريق الكورنيش، وأيضًا أمام ماجدة التي رأيتها منذ أيام تتحدث أمام قمطرها في مكتب البريد إلى شاب آخر فأغاظني ما فعلت.

ارتفعت طرقعات المقص تدوي في أذني، انتابتني الرغبة أن أقوم قبل أن ينجز الرجل عمله، وأنطلق عائدًا إلى منزلي، تخيلت حلاق الوحدة، وهو يجز شعري بمقص كبير، ويدفعني أن أحني رأسي أمامه، بالأمر، كي يتخلص مني بسرعة، ليتفرغ لزميل آخر، باعتبار أن عليه أن يخلص على كل هذه الرءوس الكثيرة في طابور واحد.

رد "عم مهدي": نعيمًا.. ما رأيك؟

قبل أن أشكره، وأنا مغمض العينين، وقبل أن أمنحه القروش العشرة التي في جيبي، قال، كما يفعل كل الزبائن:

– وجهك "منور".

رغم كل مقاومتي للنظر إلى المرايا العديدة التي تملأ المحل، فإني رأيت "طاستي"، وقد تخلى عنها تاجها الأسود الكثيف. أسرعت إلى الشارع، وتحاشيت أن أمر أمام المكان الذي يجلس عنده الأستاذ فيصل، وطرأ بذهني سؤال لم أفكر فيه من قبل:

– لماذا لم يجند الأستاذ فيصل مثلنا؟

كانت أمي أول من رآني بهيئتي الجديدة، وللغرابة أنها رددت نفس عبارة الحلاق.. جلست ليلتها في غرفتي الصغيرة لا أبرح مكاني، أنظر إلى

أفق بعيد، وأتخيل نفسي قد أصبحت جنديًا أرتدي خوذة ثقيلة على الرأس، وأحمل سلاحًا أطلقه نحو إسرائيلي يربض عند ركن آخر من بلادي. ألقيت نظرة على أعداد مجلة "الحوادث" اللبنانية، وأحسست برغبة أن أنطلق لتوي إلى مركز التجنيد، قبل أن تأتي ساعات الصباح، امتلأت هذه المجلات بمقالات جعلتني أحس بمدى ضالتي كعربي أمام التفوق الإسرائيلي الذي يتعاظم يومًا وراء يوم.

وقفت في السادسة صباحًا أمام المرآة، ورأيت وجهي لأول مرة بدون التاج الأسود، تحسست مكان سوالفي السميكة، رحت أبرر لنفسي أن آخرين يدفعون حيواتهم فداءً لأوطانهم، فلماذا لا أضحي بشعر رأسي، وبسوالفي الطويلة، قررت أن أستحم بعد أن تحملت النوم لأول مرة برأسي الحليق دون استحمام.

عند باب شقتنا الصغيرة، قبلتني "أم حسن" إحدى قبلاتها النادرة، كأنها تودعني، قلت كي أخفف من مشاعرها التي لم تستطع إخفاءها:

- سوف أعود في الظهيرة.. مسألة اجراءات.

وقبل أن أختفي عن أنظارها، وبينما أرفل في البنطلون الشارلستون البنفسجي، التفت إليها للمرة الرابعة، ورأيتها تشير لي، كأنها تمسح دمعة جديدة سقطت رغمًا عنها، تعمدت أن أختفي عن الأنظار، وانطلقت نحو ترام الحضرة، وانحشرت في عربته الأمامية. ولأول مرة لم أهتم بأن يتكسر

كواء قميصي المشجر، أو أن يتسخ حذائي الأسود ذي الكعب الإيطالي العالي.

عند بوابة المعسكر، التقينا مجددًا، الكثير من خريجي دفعة **1972**، من كلية الآداب جامعة الإسكندرية. سرعان ما خفت مشاعر الخوف من المجهول، ونحن نطلق التعليقات، ونحس أننا نقلنا أجواء الكلية إلى مدخل المعسكر، خطب طاهر نوري زميلته حسناء قبل التجنيد بأسبوع، وحصل "عابد الشريف" على الإعفاء من التجنيد فقط بالأمس، ولن يساق مثلنا إلى الحرب، رأيت مجاهد يقف أمام البوابة، كأنه يستقبلنا في عالمنا الجديد، مثلما فعل في كلية الآداب قبل أربع سنوات، عرفت أنه أجل تجنيده عامين تزوج خلالهما من ناهد. صاحبة أجمل عينين في الكلية، وأنه أصابها بحالة من الهستيريا قبل أن يطلقها، قال:

- كل شيء بالنظام يا غجر..

علق واحد من الواقفين:

- احترم الأقدمية يا أستاذ. فنحن مجندون منذ الأمس.

بدأنا نتعرف على مصطلحات جديدة لم تخطر ببالنا من قبل، انفتحت البوابة في السابعة، قابلتنا الأوامر، وأفردنا بطاقاتنا الشخصية، وقدمنا ما يدل على حصولنا على شهادات عالية، وتم قياس أطوالنا، وقيل لنا أن نتوجه في اليوم التالي إلى معسكر مصطفى كامل لتوقيع الكشف الطبي.

قلت لأمي في المساء إننا سنقف عراة غدًا أمام الطبيب، وأنه سوف ينظر إلى أعضائنا الجنسية، كي يتأكد من صلاحيتنا للتجنيد، نجحت في أن أضحكها، كي أثبت لها أنها أنجبت رجلًا يصلح لدخول الجيش، فالحصول على الإعفاء وإن كان صعبًا هذه الأيام إلا أنه يعني لدى الكثيرين أن المعاف مصاب بعيوب عديدة، منها أنه قد لا يكون رجلًا كامل الأهلية.

انتباتني الرغبة في أن أفعل أشياء كثيرة، أن أنزل إلى محطة الرمل لدخول أية سينما، فأنا مازلت على ذمة الحياة المدنية، أو أن أتسكع قليلًا أسفل نافذة ماجدة، لنخرج إلى كازينو الشجرة، لكنني تراجعت. ماجدة تريد أماكن أخرى أكثر فخامة لا يتوفر لديَّ ثمن المشروبات فيها.. وجدتني أفتح مصراع دولابي الصغير، وأحشر رأسي بين ملابسي المدنية التي لن أستعملها لفترة طويلة، الفانلة اللامعة المصنوعة من ألياف بللورية صناعية التي اعتبرني بها الكثيرون من الطلاب أنيقًا، لعدة أيام، تبدو داكنة، وذات رقبة عريضة أشبه بما ارتداها "مارلون براندو" في فيلمه الأخير. وذلك القميص المزركش الذي أتى به زوج أختي من ليبيا.. هبت على ذاكرتي واحدة من التوأمين، التي كانت تجلس أمام إحدى الموائد مع شاب تبينت ملامحه جيدًا، أما هي فلم أعرف حتى الآن من كانت منهما، هل سها أم أختها. طوال عام وأنا أحاول أن أتفرس في وجه كل منهما. لعل المقلتين تتحركان لتنما عن اعتراف.. لكن أبدًا.

فكرت أن أهرول إلى بيت أختي، كالعادة. وأن أعرف من التي خرجت اليوم لمدة تسمح لها بلقاء شاب في أي كازينو من الكازينوهات

التي تملأ المدينة. لأول مرة بدأت أحس بأهمية الوقت. فليست أمامي سوى ساعات وأخلع ملابسي أمام الطبيب الذي سيكشف على أعضائنا.

راح كل منا يدلي بدلوه حول سبب إصرار الطبيب أن نرفع إحدى ساقينا إلى أعلى، قال أحدهم مازحًا:

- حتى يكتشف الملوطين بسهولة.. فلا لواط في الجيش.

ردد آخر تم اختياره فيما بعد في الخدمة الطبية:

- بل يكشف عن الدوالي..

انتابتني رغبة قاتلة في الضحك وأنا أغمض عيني، واقفًا في صف العراة، أتخيل الضابط وهو ينظر إلى فتحاتنا الخلفية ليختبر درجة اتساعها، كتمت الضحكة بكل ما لديَّ من قوة، وأنا أتحامل رفع جسدي على مستوى ساق واحدة، سمعناه يردد:

- إلبس..

لم أبال كثيرًا بسرعة تنفيذ أوامره، ولعل هذه كانت رغبتنا جميعًا. فقد تأكدنا أن أحدًا منا لن يتم إعفاؤه بسبب أن شخصًا ما ضحك عليه وهو صغير، التفت إلى "ماجد" ببدانته المعهودة، أردت أن أشير له أن يحاذر وإلا سقط شيء ما منه قبل أن يرتدي ملابسه.

سمعت أحدهم يعلق ساخرًا، بعد أن خرج الطبيب:

- ترى كيف يكشفون على البنات في الجيش الإسرائيلي؟

انطلقت الضحكات في العنبر، جاءت الإجابات متناقضة.. لم تكن إجابات بالمعنى المفهوم، بل تعليقات مليئة بالسخرية والخيالات، راح البعض يتصور فتحات النساء وقد وقفن عاريات أمام الطبيب، وأن على كل فتحة إلقاء القذائف الموجهة ضد الجنود المصريين، علق آخر:

- أنا لي فتحة تطلق دانات أقوى هأ.. أنا عندي انتفاخ في بطني لا يباريه سوى أصوات الرعد في شهر طوبة.

قال ثالث:

- وكنا قد أكملنا ارتداء ملابسنا ونحن نستعد للخروج إلى الحقنة **606**:

- هل للنساء الإسرائيليات دوالي مثلنا؟

اندفعنا نتصور شكل هذه الدوالي. لم أتخيل كيف يكون وجه أية فتاة إسرائيلية سوف تحاربني، أحسست برغبة أن نطلق جميعًا قذائفنا من بطوننا المنفوخة في نفس اللحظة. صاح الجاويش يتعجلنا:

- هيا.. يا دفعة.. كله صف واحد..

راح المستجدون يصطفون خارج العنبر، وهم يتأهبون للحقنة التي سوف تقينا من حرارة الشمس، حسبما ردد الذين تم تجنيدهم من قبلنا، سمعت تعليقًا، ونحن نشمر عن سواعدنا:

– من يأخذ هذه الحقنة تتم ترقيته إلى درجة حمار..

رد عليه زميله:

- يقال إن تأثيرها ضعيف.. بدليل أنها لم تؤثر فيك..

سأله الأول: ايش المعنى..؟

علق زميله: لأنك لم تنهق حتى الآن..

راح كل منا يدفع زميله، كي يحظى بشرف الحقنة، ربما ليتخلص من عبء وخز الإبرة، أو للانتهاء من أمر وجوبي كالموت، ذاقه كل من وقف وقفتنا هذه من قبلنا، ومن سيجيء بعدنا غدًا.. نظرت إلى شمس أكتوبر وسألت بعد أن عرفت معنى الوخز:

– لم أنهق بعد..

جاء رد الجاويش:

- الآن سيتم الانصراف.. غدًا في معسكر مصطفي كامل.. من أجل المهمات..

وجدت نفسي أمام ساعات أخرى ارتدي فيها الملابس المدنية، وددت أن أدخل إلى عم مهدي، أسأله أن يعيد إليَّ شعري مرة أخرى كي أهدأ به. رآني من وراء حاجز المرايا، التفت نحوي. رغم انشغاله بهندمة

شعر شاب كثيف الرأس، بدا كأنه يشير إليّ، راح يلاعب طرفي المقص بأصابعه، خرج من المحل، وقال:

– هل رأيت صديقك؟

لم أفهم ماذا يقصد، بدا كلامه غريبًا، تصورت أنه أخطأ الشخص الذي يتحدث إليه، فلم أدخل هذا الصالون سوى مرة واحدة.. وهو بالتأكيد لن يتذكرني وسط عشرات الزبائن الذين يأتون إليه يوميًا. لمعت عيناي من التساؤل. قال قبل أن أستفسر:

– نقوله إلى المستشفى الأميري..

انتابني الجزع، فلم أعرف أحدًا تم نقله إلى المستشفى الأميري، إلا وأخرجناه إلى مقابر "العمود" دون رجعة، وجدت لساني ينطق في جزع:

– من.. الأستاذ "فيصل"؟

لم أتركه يرد، ارتبكت قدماي، لا يعرف صاحبها إلى أين يذهب، فأنا لا أعرف مسكنه، وإن كنت أعرف الحارة العلوية التي يسكن فيها. تحسست القروش في جيبي وأنا أنتظر الأتوبيس الذي طالما رأيته ينظر إليّ كلما ركبت، تأخر الأتوبيس الملعون هذه المرة، بدا كأنه لن يجيء في هذه الأمسية، آلاف التصورات تتماثل أمامي عما حدث له، لعل سيارة عسكرية صدمته مثلما حدث بل سنوات لابن خالي أحمد عبد العظيم، أو لعله غرق في شاطيء العجمي الذي يميل إلى السباحة فيه، حتى في شهر أكتوبر.. ولعل.. بل ألف لعل.

فكرت أن أعود إلى "مهدي" لأسأله عن شيء يعرفه، لكنني خشيت أن يأتي الأتوبيس بين لحظة وأخرى فيضيع عليّ الانتظار، عندما هممت بالعودة رأيته يهل من ناحية "شركة الغزل"، فتأهبت للقفز بداخله، بعد دقائق رماني أمام شارع يؤدى إلى باب المستشفى.

في طريقي إلى هناك، تمثل لي شبح الموت في أكثر من شكل، ورأيت عشرات النعوش تحمل أشخاصًا في طريقهم إلى المقابر، رغم ظلمة الليل، خلت أنني في حلم، لكن تلك العربات التي يحوطها الأهالي جعلتني أرى الموت ماثلًا أمامي، نسيت الأستاذ فيصل، ووجدت نفسي إلى جوار نائحة تحاول أن تكتم دموعها، رغمًا عنها، حاولت أن أستفسر عما يحدث، وهل هناك تصريح بالدفن في مثل هذه الساعة، فمقابر العمود أو المنارة تغلق أبوابها قبل أذان المغرب.

روعني العدد الكبير من المشيعين المتكدسين أمام باب المستشفي. هالني أن أحدًا لا يبكي. كأن هناك أمرًا للجميع بأن يكفوا عن النحيب، مثلما صدرت لنا الأوامر صباح اليوم أن نرفع السيقان طواعية أمام الطبيب.. وجدت نفسي أسأل:

– ماذا هناك..؟

لم تجيء الإجابة بسرعة، قال شخص بدا كأنه لم يفقد عزيزًا مثلي من هذه الأجساد الخارجة في عربات صامتة:

– إنهم شهداء!!

ثم زاد تفسيرًا: حتى لا يحس الناس بالإحباط..

قيل لى أنني عرفت الإجابة، فكل هذه الجثث، نفق أصحابها عند جبهة القتال، هؤلاء هم حصة الشهداء من أبناء الإسكندرية، جاءا ليدفنوا في تراب المدينة، وسوف يتم نقلهم جميعًا إلى المنارة القريبة، دون أن ينتبه أحد من الأهالي، لذا صدرت الأوامر بعدم النواح، كأن الأوامر أيضًا في الموت.. سألت الشخص الذي أفادني بالإجابة:

- ألا يدفن الجنود في أماكن استشهادهم؟

رد هامسًا، كأن شخصًا إلى جواره ينصت إلى فصاحته:

– هؤلاء ضباط..

أحسست بالجزع، فإذا كان هذا العدد من الشهداء لضباط في الاستنزاف، فترى كم جندي مات؟.. سرعان ما انتابتني الوساوس، فغدًا فقط سوف نعرف مصير كل واحد منا، هل سيتم اختياره ضباطًا، أم جنديًا، الكثيرون يتمنون أن يصيروا جنودًا، فالآن فقط يمكن بحسبة صغيرة معرفة تاريخ التسريح من الجيش، لكن الضباط الاحتياط يتم تجنيدهم سبع سنوات على الأقل. بينما يتمنى البعض الآخر أن يحقق حلمه القديم بأن يصير ضابطًا، يتحكم في خلق الله، ويعلق النجوم على كتفيه.

ولأول مرة تنتابني الرغبة أن أصير ضابطًا، حتى إذا جاءوا بجثتي وضعوني في مقابر أهلي إلى جوار أبي وجدي وأحمد عبد العظيم، تنبهت أنني ذهبت بعيدًا. وسرعان ما أدخلت نفسي في دائرة تقمصتها كعادتي. حيث

اندفعت دانة فوق رأسي فهشمته مليون قطعة متناثرة، ولم يبق من جسدي سوى شارة معدنية تسلمناها صباح اليوم مع البطاقة العسكرية يمكن منها التعرف على شخصية الشهيد إذا كانت إلى جواره.

رفعت سبابتي اليمنى لأعلى، بدأت أردد الشهادتين مرات عديدة بصوت مسموع، خيل إليّ أنني سوف أجهش، حتى إن كان ذلك ضد الأوامر، أدركت أن كل المكتظين على الرصيف يرقبون المشهد، ليسوا من أهالي الشهداء، بل هم عابرو سبيل مثلي، وجدوا أنفسهم يبكون أبناءهم، أو أقاربهم الغائبين في الجبهة، الذين سوف أنضم إليهم ابتداءً من الغد، بشكل تمهيدي، وأنني بدأت أبكي نفسي بشكل مسبق، رأيت جثتي ملفوفة في أحد تلك الأعلام الموضوعة في العربات المغلقة، ويجب أن أرى نفسي ممددة في مكانها الآخر، قبل أن يضعوها في المقبرة، تخيلت أن الجثة تم تشويهها تمامًا من جراء الدانة التي لا تعرف كيف تفرِّق بين ضحاياها.

رأيت أمي وسط النائحات الصامتات، تود أن تبكي عليَّ، لكن نواحها غير مسموح له أن يرتفع عن الحد الأدنى للصمت، وعندما عجزت عن التعبير عن عميق صدمتها في فقد ابنها، جاءت بكل ملابسه ووضعتها معه في التابوت، مثلما سمعنا أن اليونانيين الذين عاشوا في المدينة طويلًا يفعلون ذلك، قيل إن الأقباط يقلدونهم، ويضعون كل ما يتعلق بالمتوفى، في تلك العربة الذهبية الزجاجية التي يبدو منها التابوت للعيان تجرها ستة جياد، ملثمة بملابس سوداء، يعلوها صليب يحوطه تمثالان لملائكة يبدو كأنهما سوف يصحبان الميت معهما.

ترمي فوق جثتي بنطالي الشارلستون الوردي، وقرينه البنفسجي، وقميصي ذا المربعات الواسعة الحمراء الذي أعتبره أكثر ملابسي أناقة، والحزام العريض الذي اشتريته قبل إعلان النتيجة بأيام، وحذائي ذا الكعب الإيطالي العالي الذي يرفع من قامتي، تعرف أمي أن قلقي من الذهاب إلى الجيش مصدره الأساسي أني سوف أفتقد هذه الملابس، فاقترحت عليّ أن آخذها معي، لألبس منها ما أشاء فاستحسنت الفكرة.

رأيت في الصف كل من أختي وأخي حسن وزوج أختي، والتوأمين، وقفت ريم تنوح بالغناء عليّ، بدت كأنها اقتنعت أخيراً بقصيدتي عن الموت الكامن في أعماقنا، وأننا في لحظة نتقدم فيها في العمر لا نعيش، بل نموت. فالحياة موت، والزمن حين يتقدم كل ثانية إنما يميت كل من حوله.

وضعوني في مقبرة فردية.. ليس بها أحد غيري، في صدارتها قطعة من الرخام الأبيض المستطيل، منسوخ فوقها آية "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا. بل أحياء عند ربهم يرزقون"، استشهد في...

تنبهت إلى التاريخ، تساءلت عن موعده، تنبهت أن الموكب الحزين الصامت مر أمامنا إلى الحارة المظلمة ناحية شارع السلطان حسين، وراحت رياح الخريف تدفع نسمائها إلى أنفي، فأدركت أنني ما زلت على قيد الحياة، وأن التاريخ لم يدون بعد فوق قطعة الرخام..

فجأة رأيته خارجا من الباب، أسرعت إليه، أمسكت يده، تسنده امرأته، بدا شاحبا على غير ما توقعت، وابتسم بشاربه الكثيف، وسأل:

– ماذا فعلت في التجنيد اليوم؟

سألته: سلامتك.. عم مهدي....

قال بلا مبالاة: وهو يحاول أن يستند على زوجته:

– مهدي هذا يهوِّل من الأشياء..

وبضعف باد أشار إلى زوجته: نادي على تاكسي.

حاولت أن أسنده، قاوم بكل كبرياء حتى لا يسقط، فجأة انحرفت سيارة أجرة في الطريق، كأنها مرقت من موكب الشهداء بصعوبة، وبينما يترل منها شخص تنسال منه الدماء غزيرة، وهو يسب الملل والبشر، أدخلت رأسي داخل السيارة، وقلت للسائق:

– لحظة واحدة يا اسطى.. معنا الأستاذ فيصل.

أدركت كم نطقت الاسم بإجلال شديد، سرعان ما خرج السائق من السيارة، راح يفتح الباب الذي دفعه الزبون المجروح، وساعد الأستاذ فيصل على الركوب في المقعد الخلفي، بينما بدت زوجته مترعجة لما يحدث أمامها، كأنها غير قادرة على السيطرة على الموقف.

قبل أن تتحرك السيارة، تنبه السائق إلى شيء، صاح في الزبون الذي اختفى في ممر الاستقبال:

– أنت يا أخونا.. الأجرة..

لكن أخاه هذا ذاب فجأة داخل المستشفى، لم يلعن السائق حظه كما توقعت، بل بدا كأنه يهنيء نفسه على نجاته، وهو يقول:

- مصائب تتقاذف علينا من الطريق.. جاءها البلاء تلك المهنة.. أتصدق يا حضرة.. كل زجاجات السينالكو في المدينة تكسرت أمام عيني هذه الليلة. كنت أوصل زبونًا.. دخلت به حارة ولا كل الحارات.. يبدو أنهم كانوا ينتظرون وصولي. شباب ضائع. خنافس.. لعن الله الخنافس من يوم ما صنعوها.. الواحد منهم شعره ولا المرأة الفاجرة.. مع عدم المؤاخذة يا هانم.. (يقصد زوجة الأستاذ فيصل بالطبع).. لم أر مثل هذا طيلة عمري.. سلاسل على الصدر، أسورة جلد مرصعة بالأزرار اللامعة في اليد، واللبان في الفم، وأزرار القمصان مفتوحة، والسوالف طويلة.. حتى الأحذية.. الأحذية يا حضرة.. أصبح لها كعب عال مثل كعوب النساء يطرقعون بها.. انظر.. إنهم يملأون الميدان.

كانت السيارة قد نزلت بنا من الشارع المجاور للقنصلية البريطانية ودارت حول حديقة الخالدين، ثم وصلت إلى دليل محطة الرمل حيث تكتظ مجموعات الشباب، يلتهمون الفيشار والمثلجات، وتقتحم أعينهم صدور النساء وأوراك الفتيات ذوات الجونلات القصيرة:

إنه غضب الله يا حضرة.. تقولون نكسة، بل قل هزيمة.. من الذي سببها لنا سوى هؤلاء المخنثين. المهم.. كنت داخل الحارة، أوصل راكبًا وزوجته.. ناس محترمين مثلكم تمامًا.. لا يتخيرون عنكم في شيء.. فجأة، وعينك ما تشوف إلا النور، سمعنا صوتًا يدب فوق السيارة صرخت السيدة التي كانت معي، وقالت "سلامٌ قولًا من رب رحيم".. ودوى صوتها الحياني، بصراحة.. أنا قلبي وجعني.. قلت يمكن زلزال.. لكن ما الذي سيجيء بزلزال إلى هنا.. نحن في بلاد آمنة من كل الزلازل.. اكتشفنا أن واحدًا من الخنافس قفز فوق السيارة، وبسرعة وصل إلى الناحية الثانية. لم يكن عندنا وقت للدهشة. ولا للسؤال. لم نر سوى الدم يتدفق، من أين؟ لا نعرف.. واحد يصرخ، والثاني يسب لأمه، وقبل أن تكمل السيدة التي كانت معنا صرختها، بدأت غارة زجاجات السينالكو.. قذائف موجهة يا حضرة من فوق، ومن تحت. ضربات مسددة بكفاءة نادرة، لو وجهناها لإسرائيل لغلبناها. وجعلنا ديان أبو عين واحدة يغمي عينه الثانية من الخوف.. بصراحة لم أعرف ماذا أفعل. شيء من الله هداني أن أرجع للخلف، وأنفد بجلدي. لكن الحظ يا حضرة، الظاهر كان هناك فرح، والعريس كان في الزفة، والمدعوون كثرة، وجدت نفسي أصطدم بسيارة جاءت وراءي، يبدو أن الغارة كانت مدبرة لإفساد الفرح. وكما فهمت من كلام الأخ الجريح الذي كان معي، أن واحدًا من الخنافس كان يحب جارته. وأقسم أن يفسد زفافها بمعركة السينالكو. مثل معركة شدوان كان الركاب الذين معي من المدعوين لحضور الفرح، ومن سوء حظي أنني وصلت قبل العريس بثوان قليلة، تصوروا أنني جئت معهم. وأول ما وصلنا

قذفت زجاجات السينالكو من كل مكان.. رحت أسب لآبائهم يا أولاد الزواني، أنتم لا تقدرون ثمن هذا التاكسي.. لكن وربك، أغلى شيء هو الإنسان.. يا روح ما بعدك روح.. الركاب الذين معي، فتحوا الأبواب.. وهات يا "فكيك"، وحل الصراخ بدلًا من الزغاريد، رأيت فجأة واحدًا من الخنافس، وبزجاجة السينالكو في يده يصرخ في وجهي عبر الزجاج أن أغادر المكان، وهو يلعن أسلافي. لم يترك لي فرصة للتفكير، ضرب بـــ"السينالكو" على الزجاج وبقوة. لكن ربك ستر.. ولم أجد بدًا من أن أفلت بجلدي وسيارتي بأي ثمن، لم أعرف إلى أين يتجه.. فمثل هذه الحواري ضيقة، وأنا غريب عنها. خلنا أنفسنا في يوم القيامة.. لا تعرف بالضبط من يضرب من، ولا من هم الخصوم، بكل خوف وسرعة، والجبن سيد الأخلاق في هذه الظروف، أدرت السيارة، رحت أبحث لنفسي عن مكان، كنت محظوظًا، فسرعان ما خلا المكان، واختفى الناس في البيوت، وانطفأت المصابيح، وتمزقت الزينات، اندفعت وسط طلقات السينالكو نحو قمة الحارة، لكن فجأة، قبل أن أفلت من إحدى السيارات التي اعترضتني انفتح باب السيارة، وارتمى رجل في المقعد الخلفي، سمعته يصرخ في زميل له: نط يا فزدق.. هنا أدركت أن القضاء قد حل.. وأنهم سوف يتكومون في سيارتي. لكن لا.. فعقلية الخنافس ذكية، ارتمى المجروحون في السيارات متناثرين، حتى إذا جاءت الشرطة، وأمسكت واحدًا منهم، لا تتمكن من القبض على الآخرين، رأيت أحدهم يرمي بنفسه فوق شاحنة كانت تمر في الشارع الرئيسي. ملابسه مليئة بالدم، لا أعرف أية قوة تملكته وهو يقفز في الشاحنة، إنه الخوف.. بل هو الإجرام. أما أخونا الذي ركب معي، فقد

نزل إلى جوار المقعد الخلفي، راح يتأوه، لم ينطق بكلمة واحدة، تصورت أنه سوف يلعن، ويشتم، تمنيت لو أعرف منه الحكاية، لكنه لم يتكلم إلا عبارة واحدة فقط، عندما تعطلت مسيرتنا أمام الجنازة العسكرية، رفع رأسه وأطل على المشهد وقال: يا بختهم.. ماتوا وارتاحوا.. ثم عرفت أنه شقيق العروس الذي أصر أن يزوج أخته لصايع آخر غير الذي تقدم لها..

بدا الأستاذ "فيصل" منتبهًا لطريقة السرد التي يروي بها السائق حكايته المثيرة، كان يختار ألفاظه كأنه يقص واحدة من القصص الشيقة التي سمعناها ونحن صغار بصوت زوزو نبيل في الإذاعة، ورددت:

– احمد ربنا أنه لم يسمعك..

التفت إليّ وفهم ما أقصده قال:

– لا.. الحق حق.. كان يجب أن آخذ أجري.

ولأول مرة منذ أن بدأ سرد الحكاية تكلم الأستاذ فيصل:

– هذا الولد أعرفه جيدًا.. كان تلميذًا عندي في مدرسة "رأس التين"..

التفت إليه السائق، كأنما ليتأكد من ملامح وجه تلك الشخصية المهمة، لعله تعرف عليه وسط ضوء الشارع الذي سقط على وجه الأستاذ فيصل ردد:

– هذا..

قبل أن يكمل السائق جملته، قال الأستاذ فيصل:

– كنت في شارع أم حنفي.. أليس كذلك؟

هز رأسه، وقال بصوت أجش: أجل كلامك صحيح..

ضرب الأستاذ فيصل يدًا بيد، وقال سبحان الله.. كل المدرسين كانوا يعملون له ألف حساب.. وهو في الإعدادية.. وكانوا يخيفونه بي.

أردت أن أذكره بنادر وهيب يوم أن جاء ليعيدنا جميعًا من البلياردو إلى صفوف المدرسة، وكيف أضاف الحادث عشرات الحكايات إلى ما يقص عن طريقته في التعامل مع التلميذ، بدا أنه التقط الخيط ليتكلم عن تلميذه القديم:

- هل تعرف لماذا جرى بسرعة داخل الاستقبال. لقد رآني ويبدو أنه لم يتمن شيئًا في حياته قدر أن أراه على هذه الشاكلة، فكم تنبأت له بأنه سوف يكون ربيب سجون، وأقسمت له بروح أمه، أنني لو وددت أن أدخل وراءه السجن لأؤدبه فلن أتأخر.

ابتسمت، نسيت أنني أمام شخص خرج من المستشفى لتوه، وأنه يغالب آلامه، ويحاول إعادة النضارة إلى وجهه وهو يتكلم عن أمجاده القديمة، هنا سأله السائق:

– وسيادتك.. مدرس؟

رد: في العباسية الثانوية.. مدرس تربية رياضية.

بدأ السائق يوصي على ابن أخته الذي دخل المدرسة مع المستجدين في العام الدراسي الجديد، لكن السيارة اخترقت شارع يوسف الحكيم وأشار الأستاذ فيصل أن يدخل به إلى المنحدر، وهو يردد:

– لا تقلق على ابن أختك.. فكل التلاميذ أبناء لإخوتي.

تدخلت من جديد: اسألني أنا..

التفت إليه، مررت براحتي على ركبته النحيلة، ورأيت وجه زوجته الصامت وسط الظلام، لم أستطع بتلك النظرة الخاطفة أن أقرأ ملامحها جيدًا، رأيته ينظر إلى العداد من داخل العربة وسأل:

– كم يا أسطى؟

قال السائق وهو يحاول تغطية العداد، بعد أن انحنى عليّ، ومد يده خارج السيارة:

– علينا هذه المرة يا أستاذ.

أجاب: فيصل..

وقبل أن يخرج كان قد منحه الأجرة.. دفع الباب بيده، وهو يتنهد. استقبلته خارج السيارة، وحاولت أن أسنده، خلته يقرأ قصيدة، وهو يشكرني مناديًا باسمي. ربما لأول مرة منذ خمس سنوات. حاولت أن أدقق في ملامح وجهه على ضوء المصباح الخافت، لكن دعوات السائق له شتتت انتباهي. أردت أن أسأله عما يحس به من تعب، وهل هو مريض

حقًا، وهل ذهب إلى المستشفى بعد أزمة قلبية أم لحضور الجنازة العسكرية. بدا لي الآن فقط أنني توصلت إلى سبب عدم دخوله الجيش..

تحامل على نفسه بكل شموخ، وقال في أنفة ملحوظة:

- **هل ستدخل معي إلى البيت.. هيا إلى دارك.. فغدًا وراءك يوم طويل.. إنه الترحيل.. أليس كذلك..؟**

هززت رأسي، وأنا لا أعرف هل تهتز نفيًا أم إيجابًا.

اليوم السابع

كم طال انتظارنا لهذه الوريقة. وها هي الآن بين أصابعنا.

قال "مرتضى" وهو يفركها بسعادة بين أنامله:

- في الجيش.. إذا جاءك الموت أولًا فخذه.

كان على المجموعة السابعة من أجازات الميدان ألا تنام في تلك الليلة، وأن يفعل أفرادها كل ما يعن لهم، وألا يرفضوا أي أمر، أو حتى يحسوا بالتذمر، حتى لا يفقدوا التصريح بالحصول على أجازة لمدة اثنتين وسبعين ساعة شاملة السفر والعودة.

منحوا كافة المتزوجين من الضباط وصف الضباط والمتطوعين أجازات أطول بيومين، وكانوا أول من نزل إلى ذويهم في الدفعات الأولى بعد أن فتح باب الأجازات بأمر من رئيس أركان القوات المسلحة الجديد. كان علينا أن نعد الثواني فوق حبات الرمل، حتى أمسكت أخيرًا بالتصريح..

بدلة الأجازة جاهزة منذ أكثر من أسبوع، مكواة في مكانها (تنتظر) أن يحن عليها صاحبها ويلبسها.. البيادة تم تلميعها على أحسن ما يكون البريق، والجورب الذي تسلمناه من المهمات في آخر "صرفية" تم حجزه لهذه اللحظة، والحقيبة مليئة بكتب وخطابات جاءتنا طوال فترة إيقاف

الأجازات من الأشقاء والأصدقاء ورسالة حزينة عن الأزمة الحادة التي أصابت الأستاذ فيصل. حرصت أن أضع الراديو الصغير الذي لم يعد باستطاعة كل منا أن ينفصل عنه لمتابعة سير المعارك منذ الظهيرة التي سمعنا فيها أن قواتنا حطمت خط بارليف، آنذاك فهمنا سر المهمة الموكولة إلى فصيلتنا الأولى بالتحرك خارج منطقة الغردقة، ولم يعد منها سوى الضابط سعد الذي لم يغادر ملجأه إلا للقيام بأجازته في الدفعة الأولى.

سمعت من الراديو إذاعات لم نألفها من قبل: مونت كارلو، وإسرائيل، ولندن، وصوت أمريكا، فألهتنا بنشراتها الإخبارية عن صوت العرب والشرق الأوسط وهنا القاهرة. ورغم ذلك لم أكف عن إدارة المؤشر لأستمع إلى أنشودة "ريم" الجديدة، وأنا أشير إلى كل رفاقي في طاقم اللاسلكي:

– إنها صديقتي.. كانت يجب أن تغني لي قصيدة.

وما إن أقول ذلك حتى أتحول إلى مادة للتندر.. وتصبح كلمة "صديقتي" بمثابة الفيشار الذي يتناوله الجميع بتهكماتهم لدرجة خلت عندها أن اسمي قد تم محوه من سجلات الجيش، وأنني العريف مؤهلات عليا: "صديقتي"، يرمون عليّ بالكلمة، فأضحك. لا أعرف لماذا أفعل.. ربما لأن كلًا منا في حاجة إلى صديقة. في هذا العالم الرجولي المحروم من النساء، وربما بالإحساس بالتميز لأن لي "صديقة" تتمتع بمثل هذا الصوت الجميل، وتنشر الصحف صورها باعتبارها مطربة العشرين عامًا القادمة في مصر، أو لعلي أضحك حتى لا يشعروا أن تهكمكم في محله. وأنني اختلقت حكاية

يوم شم النسيم على شاطىء البحر، كي أثبت أنني على اتصال بعلياء القوم.

راجت الحكاية مثل مئات الحكايات التي يحملها كل ما معه وهو عائد من الأجازة، منذ أن حملتنا الشاحنة، نحن الثلاثة، وطاقم الهوائي، قادمين من القاهرة حاملين مخالينا إلى معسكرنا الدائم بتلك المنطقة الصحراوية، فشهدت عليّ الجدران الموجودة بالملاجيء الصلدة، وصور الممثلات الجميلات المتناثرة عليها، والتي نسرع بتمزيقها لو تنامى إلى مسامعنا أن هناك تفتيشًا.

عليّ أن أحمل معي الراديو الصغير، فسوف أسمعه في الأتوبيس، سينقل إليّ أخبار الدنيا الجديدة، قد أستمع إلى أنشودة "قلبي يحبك يا محارب" التي تضعها الإذاعات المصرية على خريطتها من وقت لآخر، وتتحدث عن عشق فتاة للجندي الذي عاد إليها بالنصر، وعليه أن ينشيء لها البيت السعيد.

انتظرنا ثلاثة أشهر، وأربعة أيام، وبضع ساعات، وعلى العقرب أن يتحرك بسرعة، حتى يكتمل اليوم الخامس، حيث سيأخذنا أتوبيس أزرق جديد يتم فيه حشرنا لعدة ساعات كي يحط بنا أولًا في "رأس غارب". نتناول طعامًا خفيفًا. ونضطر لشرب مياه مائعة، ثم نصعد إلى الأتوبيس مرة أخرى، نحث السائق أن ينطلق بسرعة ثلاثمائة وتسعين ألف كيلو مترًا في الدقيقة كي نصل إلى ميدان أحمد حلمي. وعند نقطة الكريمات الفاصلة بين صحراء مصر الشرقية الشاسعة وواديها الأخضر الضيق، يجب أن نقوم

بتسليم أسلحتنا إلى نقطة عسكرية، حتى نخلو إلى حياتنا المدنية. ثم ستهل علينا الخضرة بروائحها المميزة، وتدرجها وثمارها. وسنرى النساء يسرن في الشوارع، فلاحات وبنات مدينة لا يهم.. فما أجمل أن يكون هناك نساء، تلتفتت إليهن الرقاب، وتكاد أن تدور حول نفسها بزاوية قدرها **180** درجة.

تنتابني الرغبة أن أذهب لتوي إلى "ريم" في بيتها الواقع في شارع رمسيس وأهنئها على أنشودتها التي تخلبنا في المعسكر، وأرددها معها، حتى تتأكد أن كلماتها تسكن قلوبنا.. لم تسمعني إياها في آخر مرة زرتها في الشقة الواسعة، كانت مشغولة بحفظ لحن جديد مع ملحن. ارتفع صوت نغماته طيلة الليل في الصالة. قالت:

– اسمع.. وراءي بروفة.. ادخل ونم حتى لا تتأخر على سفرك.

قلت: سوف أنام في الأتوبيس.. أفضل أن أسمعكما..

أشارت إلى الملحن الذي تجلس إلى جواره، وقالت:

– الأستاذ لا يحب أن أحد بجانبه وهو يعمل.

أحسست كأنها سوف "تشخط" فيَّ كي أدخل الغرفة، إنها المرة الثانية التي استضافتني فيها، وأنا في رحلتي إلى البحر الأحمر. تابعتها مصادفة عندما نزلت من أحد فنادق "كلوت بك" كي أتجول في المدينة، صرخت وهى تنظر إلى ملابسي المدنية كأنها تتأفف من شكلي.. قالت: بذمتك.. منذ متى لم تستحم؟

بعد ساعة كنت في منزلها، ألهب جسدي بسياط مياه الدش المندفعة في قوة يمكنها أن تزيل عني كل ما علق بجسدي ليس من تلك الصحراء، بل من الأماكن التي سرت بها طيلة حياتي، خاصة القاهرة. ورسبت داخل مسام جسدي كل الأوساخ التي تسربت تحت ناظري في حوض البانيو. قالت ليلتها قبل أن أنام:

- إذا خرجت في السادسة صباحًا. أغلق باب الشقة وراءك.. ولازم تمر عليّ في أجازتك القادمة.. أريد أن أسمعك شيئًا جميلًا.

انتظرت نهاية الأجازة التالية على أحر من الجمر، كي أتصل بها من المحطة.

– آلو.. ريم.

وقبل أن أنطق باسمها، سمعتها تقول بجنونها اللذيذ:

- تعال "يا واد" بسرعة.. لا تتأخر.. أنت تتكلم من المحطة.. أليس كذلك.. مع السلامة..

جريت حتى بيتها مرتديًا ملابسي المدنية الجديدة: البنطال البنفسجي اللون، الواسع عند القدمين ودب كعب حذائي فوق درجات منزلها، قبل أن أضغط على زر الجرس. سمعت صوتًا غريبًا من الداخل، كانت في حالة غناء، لذا تأخرت عن فتح الباب.. لم تستقبلني بحرارة كما توقعت، أشارت بيدها أن أدخل، كانت في حال من الطنطنة جعلتني أرقبها

وأنا أضع حقيبتي إلى جوار الباب، قبل أن أرى الرجل الذي يعزف نشازًا على عوده.

وقفت أرقبه. بدا غريبًا في كله، إنه "هيبي" أبًا عن جد. أشبه بـــ "مانسون" الذي قتل "شارون تيت"، أشعث الشعر كثيف الشارب والذقن، يبدو كأنه لم يغتسل منذ سبعين عامًا، يحتاج إلى خمسة عشر دشًا من التي ألهبت مياهها جسدي في المرة السابقة. لم أكن في حاجة أن أتذكر اسمه، فصوره تنتشر في الصحف في هذه الأيام، لا شك أن وجوده في منزل "ريم" يعد انتصارًا ساحقًا لطموحها. لم يرفع رأسه إليّ. فقد كانت ملتصقة بالعود، وكان عليه أن يرتفع إلى أعلى لو اضطر لتحيتي.

جلست إلى جواره، أحسست أنه ليس لي مكان في الصالة التي يجلسان بها، فكرت أن أدخل الحمام، لأكرر تجربة الأجازة السابقة. لكنني أحسست أن أشياء ما تغيرت هذه المرة.. سمعتها تقول وسط دندنتها:

– هل تناولت عشاءك؟

وقبل أن أجيب، أشارت إلى الثلاجة الموجودة في نهاية الصالة الطويلة:

– افتح وتناول ما تشاء..

لم أكن أشعر بجوع، لكنني فتحت باب الثلاجة الكبيرة بشهوة غريبة. ورحت أتأمل كافة الأطعمة المدنية، التي لا أكاد أسمع عنها؛ ففي هذا المكان أكلت مكرونة مختلفة الشكل والطعم، ولم أر يومًا أي أثر للفول

أو للعدس. وأنواع الجبن المتراصة في الأدراج بأسمائها الأجنبية تحتاج إلى زميل واحد شره كي يأتي عليها في دقائق، أمسكت أحد الأرغفة بين أناملي وشعرت بلذة جسدية وأنا ألمسه. انتابتني حالة نشوة لم أعرف حدودها، وأنا أستمع إلى صوت العود يشق أذني.

عندما جاءتني بعد ساعة، وجدتني أجلس فوق المائدة الصغيرة المقابلة للثلاجة، سألت:

- هل أكلت؟

- لست جوعانًا..

- جهزت لك لفافة في الثلاجة، فلا تنس أن تأخذها..

مبتسمًا قلت: لقد أخذتها فعلًا..

قالت: الآن.. عليك أن تذهب لتنام.. حتى لا تتأخر على السفر.

علقت وأنا أستمع إلى دندنات الملحن: أظل هنا..

بعد دقيقة كنت أغلق باب الغرفة التي نمت فوق سريرها الحديدي في المرة السابقة. حاولت أن أغالب النوم بأي ثمن كي أستمتع بتلك اللحظات المدنية الباقية، بدأت أستوعب النغمات التي تتحرك في الصالة، فتحت عيني المغمضتين أكثر من مرة، وأرهفت أذني لأستمع إلى صوتها الذي أعشقه، لا أعرف حتى الآن أي ضعف ركبني وغلبني وجعلني

أستيقظ في السادسة صباحًا، لأتسلل بعد نصف ساعة من الصالة التي اختنقت بروائح دخان، وامتلأت زجاجات فارغة ومنفضات لم تسع كل هذه السجائر، وأطباق لم يأكل أصحابها منها كثيرًا.

أصبحت "ريم" جزءًا من أجازاتي. مهما كانت قصيرة، بل كانت هنا معي في المعسكر طوال الأشهر الأخيرة، ليس بالطبع من خلال التهكم على طريقة "صديقتي"، لكنني كلما سمعت أنشودتها "قلبي يحبك يا محارب" أراها تغني من أجلي وحدي. وأنها تكاد أن تنطق اسمي للناس في أغنيتها، كأنها تعترف أن الكلمات صادقة.. كما أتخيلها وهي جالسة إلى جوار ملحنها الشهير، تحثه أن ينتهي من أغنيته كي تذيعها في اليوم الثالث من العبور، وأحن إلى ذلك اليوم الذي آخذ فيه التصريح كي أقوم بأجازة، أراها تحقق النجاح الذي تنشده.. وأصنع حبلًا من الذكريات منذ أن رأيتها في طرقات كلية الآداب لأول مرة في خريف **1967**. تتضفر فتائله من زياراتي المتكررة إلى منزلها ورحلتنا إلى العجمي.. وحديثي مع الأستاذ فيصل عنها..

أمسكت التصريح بيدي.. أحس أنه سوف يفتح عليّ أبواب الألم والحزن. أردت أن أمزقه حتى أتفادى اللحظات الرهيبة التي تطأ فيها قدمي كرموز دون أن تتجول فيها أنفاس الأستاذ فيصل كعادتها.. وهل تصبح كرموز عالمنا الجديد، إذا خلت من صاحب هذه الأنفاس؟

جاءتني برقية مختصرة: "الأستاذ فيصل في رحاب الله".

بدا كأنه لم يختر اللحظة المناسبة التي مات فيها، وصلت البرقية في اليوم السابع من اندلاع المعارك.. أدركت أن أرملته طلبت من أحد أقاربها أن يرسلها لي.. فتأخرت بعض الوقت.. قال الرقيب ماهر الحسيني وهو يرى الذهول على وجهي:

– هل تود أن تترل أجازة..؟

ابتسمت وقلت في سذاجة: في هذه الظروف؟

قال: يمكن للمقدم كريم أن يرسلك في مأمورية ليومين.

وأنا مازلت أحاول إخفاء الابتسامة قلت: الأمر صعب.

لم يفهم مقصدي جيدًا، فلم يسبق لي نزول أجازة وحدي من الغردقة، كل أجازاتي كانت في الإطار الرسمي مع زملائي، أحسست برهبة أن يلتهمني الطريق المغلق، الذي تملأه الشرطة العسكرية وقد تقترب منه المعارك. أدركت أنه من المحال العثور على سائق أيًا كانت هويته يقبل مثل هذه المغامرة لعبور المناطق الشائكة بالنيران..

كل ما استطعت أن أفعله، أن كررت أكثر من مرة:

– لماذا مات هذه الأيام بالذات؟

كانت في جملتي عشرات المعاني، منها أنني تمنيت لو ودعته قبل الرحيل. أو أن أكون بجانبه في المستشفى مثلما كان دومًا معي. خاصة في أجازتي الأخيرة. رآني وهو جالس في مقعده المعتاد أمام حانوت صديقه

"الحاج هاشم" وأنا أندفع بكل سرعة، لدخول الحارة، كي أعلن لأمي عن قدومي، ناداني مازحًا:

– خنفوسي!!

وقبل أن أبادله العناق والقبلات علق قائلًا:

– حتى في الجيش شارلستون.. وحذاء كعبها كالكوب.

نظرت إلى بنطال بدلتي العسكرية، وابتسمت وانتابتني مشاعر فياضة بالرضاء والسعادة فقد تنبه شخص جديد أنني طراز بنطالي العسكري وأيضًا سترتي على أحدث موضة معرضًا نفسي لأخطار لا أعرف عواقبها إذا اعترضني أحد أفراد الشرطة العسكرية، ارتميت في أحضانه وهو يقول:

– يا حلاوة.. الأولاد فسدوا.. خنفس في الجيش.

قلت وأنا أقبل جبينه بوحشة شديدة:

- راح زمن الخنافس.. نحن الآن في أيام الهيبز.. والشارلستون.

وددت أن أسأله إن كان قد شاهد "ألفيس بريسلي" في آخر أفلامه وهو يرتدي بدلته البيضاء المرصعة بأحجار كريمة تناثرت في سترته وبنطاله. بدا "ألفيس" طويل السوالف والشعر وبدينًا بشكل غير مألوف رغم الصور التي ملأت غرفة تغيير ملابسه. نظر إلى حقيبتي وقال:

– أراك قادمًا من سفر طويل.. عليك أن تستريح.

قلت: أمي لم ترني منذ شهر.. سوف أعود إليك..

علق: لك وقتك.. خذ حمامًا.. والبس ملابسك المدنية.. مر عليَّ هنا غدًا.. فأنا أريدك.

لم أتأخر عنه أكثر من ساعة. قبلت خلالها أمي على جبينها، وغسلت جسدي بماء المدينة الذي ينسال من الصنبور.. وأخرجت ملابسي التي انتظرتني ثلاثين يومًا. رميت كل ما أتيت به من أفرولات في الطست الذي تملأه أمي صباح يوم عودتي تأهبا لانتهاء الأجازة.

رأيته جالسًا مع مجموعة الأصدقاء، يبدو وسطهم أشبه بنواة الذرة التي يرسمونها في كتب العلوم. لم أشأ أن ألفت نظره. لكنني عندما عدت بعد ثلاث ساعات مررت خلالها على بيوت الأصدقاء، وتجولت في شوارع محطة الرمل، رأيته جالسًا في نفس المكان، لوَّح لي بيده كأنه يذكرني بموعدنا بالغد.

في السادسة، وحسب جامعة القاهرة كما أعلنت الإذاعة وجدت نفسي واقفًا هناك على أحسن ما تكون اللياقة أقرب إلى محمود ياسين في فيلمه الأخير. عدا السوالف والشعر الطويل، لم أكف لحظة عن التفكير في السبب الذي من أجله يريدني، فهى المرة الأولى التي يطلبني.. كم أعددت الدقائق حتى حان الموعد. لم أجده جالسًا في مكانه كما توقعت. وقفت قرابة محطة الأتوبيس أنتظر وصوله إلى مقعده، تذكرت عدد المرات التي

لحني فيها من هناك، فناداني.. وعدد القروش التي نفحني إياها في أول أعوامي الجامعية.

أحسست بمن يشير إليّ.. كان واقفًا على الصف الآخر من الشارع، بدا كأنه قد انتهى لتوه من مكالمة هاتفية في حانوت المحل المقابل للمقهى. أسرعت إليه، وهو يعبر الشارع أحسست بشيء ما غير طبيعي في حركته وهو يتحسس قفصه الصدري الأيسر، ثم أشار أن أنبهه إلى ما لاحظته وهو يسأل:

- هل تقف منذ وقت طويل؟

قلت: تصورتك عند الحاج.

تنهد وهو يقول: جلست ما يكفيني فوق المقاعد.. الآن.. أبحث عن مكان جديد..

بدا كرجل عجوز أصابه الملل من سرير المرض الذي أقعده، وهو يسأل:

– هل لديك وقت..؟

قلت بتلقائية: أنا معك دائمًا..

تنهد ثانية وسار إلى جواري وهو يضع يده على كتفي ويقول:

– لنخرج بعيدًا عن كرموز..

أردت أن أسأله هل هناك شيء محدد يريدني فيه، لكن السؤال طار وسط إحساسي أنني أحمله فوق كتفي بمجرد أن وضع يده عليَّ. لقد سبق أن فعل ذلك مرتين، ونحن في المدرسة الثانوية لكنه لم يكررها منذ ست سنوات تقريبًا. اكتسيت بسعادة غامرة وأنا أحس كم اقتربت منه، هو الأستاذ فيصل الذي يعرفه نصف طلبة المدينة، يهابونه ويحترمونه، تخرَّج على يديه أبطال اللعبات الرياضية الشهيرة في دوري المدارس والمناطق التعليمية. أدركت أنه يفعل ذلك مع كل من أراهم في طوابير الصباح. تمنيت لو رآني "نادر وهيب" الذي تخرَّج في العام الماضي في معهد أبي قير للتربية الرياضية.

سألني عندما بلغنا ناصية الشارع:

– هل أمورك طيبة في الجيش؟

قلت بتلقائية: طبعًا..

أكملت بعد قليل: لكن..

بدا كأنه ينتظر "لكن"، همهم، كأنه يستحثني أن أتكلم، قلت:

- حكم النفس على النفس صعب على شخص يعتنق الحرية على طريقة الوجوديين ويفخر دومًا بوطنيته.

- ما علاقة ذلك بالوطنية؟

- عندما ارتديت أول بدلة عسكرية وأمسكت بندقية تجسدت أمامي بكل الأشباح الإسرائيلية، أردت أن أطيح برؤوسهم بهذه البندقية. لكننا رأينا الأمرين في الطوابير.. و..

ابتسم وهو يضغط على كتفي وقال وهو ينقل يده كي يضعها داخل يده اليسرى:

– دائمًا الشباب الهش يخاف الحياة الخشنة.. إنها غلطتي.

التفت إليه، وأنا لا أفهم ماذا يقصد. قال:

- كان يجب أن أعلمكم الخشونة في المدرسة، لكن الوزارة سامحها الله، سحبت مني اختصاصاتي.

راح يشرح أن مدرسي التربية الرياضية أمثاله كانوا يقومون بتدريب الطلاب على الأعمال العسكرية قبل ذلك وما إن حدث العدوان حتى تصورت الوزارة أن قيام ضابط حقيقي بهذا العمل سوف يكسب الأمر هوية، لكن النتيجة اختلفت تمامًا، حيث تولى هذا العمل ضباط احتياط محالون إلى الاستيداع أغلبهم نسي خشونة العسكرية.

هنا أحسست أن أوان السؤال الذي ألح عليَّ منذ سنوات قد جاء فطرحته:

- هل دخلت الجيش؟

- أنا من الذين لم يصبهم الدور. وعندما اندلعت الحرب، طلبونا، كتبوا في شهادتي "غير لائق طبيًا".. نكتة.. أليس كذلك؟

بدا كأنه يستخرج كافة الأسئلة التي لم تتوقف عن الطرح عليَّ.. قلت:

- بالمناسبة.. هل مازلت تتردد على المستشفى الأميري؟!

قال بلا مبالاة:

- لي صديق طبيب هناك.. تخرج في مدرسة العباسية.. رآني يوم أن ذهبت للبحث عني هناك.. وطلب مني أن أزوره مرة كل شهر.. أنا لا أحب الأطباء.. وتعليماتهم الدقيقة. لكنني أذهب إليه كصديق.

- ما الذي دفعك للذهاب إلى المستشفي في تلك الأمسية؟

- مجرد إرهاق قليل من الإحساس بالتعب..

ضحك باستخفاف ضحكة كدت لا أسمعها، وأكمل:

- الطبيب دائمًا يحاول أن يثبت للناس أنهم في حاجة إليه.. فعندما تذهب معي زوجتي، يصر أن يفحصها زملاؤه في الطب النسائي.. لماذا..؟ لأنها تأخرت عامين في الحمل.

ووقف فجأة أمام واجهة محل. راح يدقق في البنطالات المتعددة الألوان، وهو يمصمص شفتيه:

- يا عيني عليك يا عم عبده.

كنت قد ذهبت إليه قبل عدة أشهر، طلبت منه أن "يحيك" لي البدلة العسكرية على أحدث موضة.. ثمانية وعشرون سنتيمترًا، يومها قال وهو يتحسر حسرة الأستاذ "فيصل" الأخيرة:

- الملابس الجاهزة بدأت تأكل الجو من الحائكين.

وصلنا إلى منتصف شارع النبي دانيال الذي يزدحم كعادته في شهور الصيف بالناس. لعله تعمد الوقوف أمام المحل، لا لينظر إلى أحدث الموضات التي نزلت الأوكازيون، لكن ليتذكر عم عبده الذي لا يزال يروي لكل زبون جديد كيف أتى رؤساء الوزراء والباشوات إلى محله، وكيف تملقه كل من رشح نفسه في دائرة الجمرك لدخول البرلمان.

- هذا القميص ذو الياقة العريضة غالي الثمن.

قال وهو يشدني كي نكمل المسير:

- كثيرًا ما تلح عليَّ زوجتي أن أشتري من هذه الملابس المزركشة.. كاروهات ومشجر، ومقلم، وتطلب مني أن أطلق سوالفي مثل هؤلاء الصعاليك، أشار إلى ثلاثة شباب يتضاربون على قارعة الطريق، لكن.. هل تعرف ماذا أود أن أشتري بالضبط..؟

وقف أمام فاترينة ما يود أن يشتريه لزوجته: وقال:

-	نفسي أدخل عليها وأنا أحمل مثل هذه الملابس: "كافولات" و"بارباطوز".. و..

وقف يتأمل ونحن نقف إلى جوار ثلاث سيدات.. ملابس المواليد وعربة تحمل الصغار. ارتعشت وأنا أجذبه لنستكمل المسير، بدا كأنه يود أن يخرج رغبات لم يبح بها لأحد من قبل، أردت أن أسأله هل يحب امرأته إلى هذا الحد. قال، وهو يبتعد عن المحل قائلًا:

-	هل تعرف أجمل شيء في الدنيا؟

قلت مازحًا: النساء..

رد بنفس الشجن: في سنك كنا نقول هذا.. الآن يجعلنا افتقاد الذرية نشعر أن الأطفال هم الأغلى.

لم أشأ أن أحدثه عن جمال النساء وكم نشتاق إلى رؤيتهن ونحن في المعسكر وأننا في ليالينا الطويلة هناك لا نتحدث إلا عما يفعله للرجال، وكيف يمنحوننا الإحساس بأننا على قيد الحياة، لكنه لم يكف عن حب امرأته الجارف للأبناء، وهو يوجهني أن نسير في أول شارع السلطان حسين، امتلأت عبارته عن لهفة أن يرى زوجته حاملًا، وهو يعبر عن هذه اللهفة بأنها من صفات المرأة، وأنه مؤمن تمام الإيمان بحكم الله، لم أشأ أن أعلق إلى جوار مذياع كل ما يجب أن أفعله هو أن أستمع لا أكثر.

فجأة توقف، كأن تعبًا انتابه ولف حول نفسه لفة كاملة، وراح ينظر إلى الناس، والمحلات والسيارات، ثم ابتسم وقال:

– لا.. أجمل شيء في الدنيا.. هو الدنيا نفسها.

أخذ نفسًا عميقًا، وقال متنهدًا: هذا النفس هو أجمل ما في الدنيا.. عندما أصابتني الأزمة الأخيرة، أحسست كأنني لن أستنشق الهواء ثانية.. لذا فكم أنا سعيد أننا نخرج اليوم. لنرى الناس. وكيف تكون الحياة.

يتعمد أن يسير قليلًا، ثم يتوقف، ويكرر نفس الأمر، بدا كأنه يبحث عن شيء ما يأمل أن يعثر عليه أو كأنه واثق برؤية شخص ينتظر مقابلته، حتى أوازن إيقاعي على ما يفعله، كم يبدو سعيدًا بما يفعله. إنه مصمم أن يتنفس من كل شبر من هذه المنطقة الأثيرة لدينا جميعًا نحن أبناء المدينة وبعضًا من الهواء الذي يميزها.

وجدنا أنفسنا على الرصيف المقابل لمقهى مصر الذي بداخله نادى البلياردو. أردت أن أستوقفه لأول مرة منذ أن ساقني إلى هذه الناحية، كان مشغولًا بمراقبة واجهات المحلات ووجوه الناس. قبل أن نتجاوز المكان قررت أن أسأله سؤالًا قديما ألح على منذ سنوات، قلت وأنا أشير إلى باب المقهى:

– هه.. هل تذكر تلك الواقعة؟

بدا كأنه قد نسي دخوله علينا ليعيدنا إلى الفصول بعد أن قفزنا من السور مع "نادر وهيب" في الثانوية العامة. إلا أنه سرعان ما استجمع ذاكرته قائلًا:

- ترى ماذا سيتذكر الانسان في كل مرة يمر فيها من هنا؟

- أنا شخصيًا لن أنسى هذه الحادثة.

ابتسم وضغط على مرفقي وهو لا يزال يلف يده اليمنى حول ساعدي الأيسر..

سألته:

– هل تفعل ذلك دائمًا..؟

بثقة متناهية، وبلا مبالاة أجاب:

– إنها وظيفتي التي تحتم عليّ هذا.. التلاميذ يخرجون في الصباح ومعهم المصروف وحقيبة الكتب ويعرف أهل كل منهم أنهم في المدرسة ويعودون بعد الظهر في نفس موعدهم.. نحن نضحك على أنفسنا. لو تركناهم يذهبون إلى مقهى "ماجستيك"، و"بيلياردو مصر"، وسينما "بارك"، و"الهمبرا".. أليس كذلك؟

كررت السؤال مرة أخرى:

– إذن فعلت هذا كثيرًا.

تنهدت كأن ما يقوله أمر طبيعي:

- أوه.. كثيرًا.. حتى لو وصل الأمر أن أهدد مدير السينما وأجعله يضيء أنوار قاعة العرض.. فعلتها مرارًا في سينما "الهمبرا" وسينما "ريتس".. يفاجيء الجميع بالأنوار تضاء ويرونني أقف وسط الصالة، أشير

إلى الذين أعرف أنهم من تلاميذي. لدرجة أن أية إضاءة حتى لو في الاستراحة تحدث في هذه الدور تعني أنني هناك. كنت أراهم يختبئون تحت المقاعد، أو يهرولون نحو الأبواب. والغريب أنهم كانوا يعودون إلى المدرسة.. لأنني حتمًا سأذهب إليهم في أماكنهم..

سألت: هل كنت تعرف كل الأماكن؟

رد وكنا قد تجاوزنا المكان بكثير واقتربنا من باب سينما "الهمبرا":

– هم الذين كانوا يخبرونني.. حتى أماكنهم الجديدة كانوا يعترفون لي بها.

ضحك مرة أخرى.. بدا وجهه بشاربه الكثيف صافيًا وهو يضحك كأنه يطرد عنه إحساسه بالمرض:

- لماذا لا أعرف هذه الأماكن، وأنا أحد روادها.. خاصة في المساء..

- قبل أن تتزوج..

- وحتى الآن.. هل تريد أن تشرب شيشة؟

- أنا لا أدخن..

- وأنا لن أسمح لك بالتدخين.. وهل يجرؤ أحد أن يدخن هناك من تلاميذي السابقين؟

وجدت نفسي أربت على يده، لعل ذلك ينقل إليه شعوري بالمودة الشديدة نحوه، بينما راح يحكي لى عشرات الحكايات التي عرفتها الأماكن، وكان تلاميذه الطرف الثاني فيها. أما الطرف الأول الحاسم للأمر فاسمه الأستاذ "فيصل".

***

تحسستني أنامل الرقيب "ماهر" برقة كي أستيقظ.. قائلًا:

- هيا.. إنه موعد السيارة.

لم أكن في حاجة للاستعداد، فكل شيء جاهز للرحيل، حقيبة السفر، وملابسي العسكرية التي غلبني النعاس وأنا في حالة انتظار، ودموع جافة لم تسقط لا أعرف دافعها رغم أن لها أسبابًا. وضعت البيريه على رأسي وخرجت من الملجأ وأسرعت نحو البوابة حيث تنتظرنا السيارة الجيب لتنقلنا إلى منطقة "الهدارة"، كي نستقل الأتوبيس من هناك. قبل أن أصل إلى البوابة روعني شيء غير منتظر، سمعت صوت المقدم "حسان" الأجش يردد كلامًا أصابني بفزع، ما ان اقتربت حتى عرفت السبب: "مر أحد الافراد فوق ملجأ المقدم، كاد أن يوقعه عليه. ولم يعترف أحد".

كان عليّ أن أعطيه التصريح أسوة بكل زملائي، شعرت وأنا أمده له بأنني أتخلص من كل وساوس الألم التي تنتظرني حين أعود فأجد مقعد الأستاذ فيصل خاويًا أمام حانوت الحاج هاشم.. سأجد كرموز خاوية تمامًا

منه، والمدينة، وشارع صفية زغلول وصالات البلياردو، تنهدت بارتياح وأنا أهيىء نفسي أن أعود ثانية إلى ملجئي.

أغلقت عيني والارتياح يغمرني، لم أسع لتوسل مثلما يفعل الجميع، فظروفهم جميعًا تختلف عما ينتظرني. لكن فجأة سمعنا "مسعد" حلاق الوحدة يجهش قائلًا:

- أنا السبب يا سيادة المقدم.. وحياة جاموسة أمي لم أكن أقصد..

أدفأتنا الضحكات قبل أن يكمل كلامه.. ووسط الظلام سمعنا المقدم حسان يضحك بينما استمر سعد يتوسل بتلقائيته التي ألفناها وهو يقص لكل منا شعره عقب العودة من الأجازة:

- سايق عليك النبي ما تحرم زملائي من أجازاتهم.. الغ لي أجازتي.. لكن هم..

ألغت الضحكات ما بين المشاعر المضطربة التي سادت المكان.

علق "المقدم":

- حسنًا.. ستؤجل أجازتك دفعة واحدة.. وليتزل زملاؤك.

ضغطت بشدة على التصريح وأنا أستعيده ورحت أتخيل أية فرحة ستغمر "أمي" وهي تراني بعد أشهر طويلة من الغياب.. قفزت فوق السيارة التي انطلقت بنا فوق المدق نحو المدينة، وتركت ذاكرتي تنساب مع طوفان من التخيلات.

الفهرس